وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة

كليّة الآداب واللّغات

قسم الآداب واللّغة العربيّة

محاضرات في مقياس

الأدب الصوفي

محاضرات مقدّمة لطلبة السّنة الثالثة ليسانس

أدب عربي

إعداد الدكتورة: سامية بو عجاجة

السّنة الجامعيّة: 1444ه-1445ه-2023م-2024م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

التصوف كما عرّفه بعض العارفين: تدريب النفس على العبودية وردّها إلى أحكام الربوبية، وهو سلوك يقوم على مجاهدة النفس وحملها على المكابدة والمجاهدة لبلوغ المشاهدة. وهو مسلك وجودي ونهج روحاني عرفاني ارتأى سلوكه جمع غفير من المتصوفة، لبلوغ مراتب عرفانية وكشفية، وولوج عوالم خفية تتجلى فيها أنوار التجلي، والفناء في المحبوب.

وهنا تتقاطع مصطلحات وتتداخل معارف وعوالم بين الزهد والتصوف ؛ فالزهد وهو ضد الرغبة، تحقير من شأن الدنيا، وتهوين من مباهجها وزخارفها الزائفة، وهو إعداد الزاد لدار المعاد، أما التصوف فقد جاء بعده متلبسا بمسوح الفلسفة والمذاهب الفكرية الإسلامية والغربية، وهكذا تطور التصوف فكرا وسلوكا ومسلكا.

فالتصوف علم وفلسفة له مصادر وأقسام ومصطلحات ورموز يكتنفها الغموض ولغة خاصة تصف أحوال السالك ومقاماته، وللتصوف أعلام وأعمال.

أما عن دواعي كتابة هذه المحاضرات وانتقاء هذا العنوان بصفة محددة، فيعود الأمر إلى سنة 2019 المصادف لانتشار فيروس كورونا أين كلفت الباحثة بتدريس مقياس **الأدب الصوفي** لطلبة السنة الثالثة ليسانس (عن بعد) فعمدت إلى إنجاز ثماني محاضرات ووضعتها في منصة المودل، ثم جرى العزم أن أكمل ما تبقى من عناصر هذا المقياس، فأكملت المهمة على مدار أربع سنوات، وطيلة هذه المدة كنت أنجز المحاضرة ونصفها ما وجدت إلى ذلك سبيلا، يعضدني في ذلك شغفي بهذا الموضوع وأملي في أن أفيد أبنائي الطلبة.

احتوت المطبوعة اثنتا عشرة محاضرة، قسمت بحسب المواضيع على الشكل الآتي:

المحاضرة الأولى بعنوان: شعر الزهد والتصوف، ركزت على مبحثين هما: تطور شعر الزهد، وتطور قصيدة التصوف مع ضبط المفاهيم.

المحاضرة الثانية: نشأة الأدب الصوفي، من خلال ظهوره في بيئات المسلمين، وذكر مشاهير الزهاد.

المحاضرة الثالثة: أقسام التصوف وقواعده.

المحاضرة الرابعة: الحبّ الإلهي.

المحاضرة الخامسة: الحلول والإتحاد.

المحاضرة السادسة: الحقيقة المحمدية.

المحاضرة السابعة: الرمز الصوفي: مفهومه وأنواعه.

المحاضرة الثامنة: المصطلح الصوفي .

المحاضرة التاسعة: اللغة الصوفية.

المحاضرة العاشرة: أعلام التصوف.

المحاضرة الحادية عشر: الشعر الصوفي في المغرب الإسلامي.

المحاضرة الثانية عشر: الشعر الصوفي في الأندلس.

أما عن أهم المصادر والمراجع التي استفادت منها الباحثة واستعانت بها ؛ الرسالة القشيرية للإمام القشيري النيسابوري، فصوص الحكم والتجليات الإلهية لابن عربي، ديوان ترجمان الأشواق لابن عربي، ديوان بن الفارض وديوان القاضي عياض، أزهار الرياض للمقّري التلمساني، كتاب تاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف، الرمز الشعري عند الصوفية لعاطف جودة نصر، أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني لمحمد زايد...وغيرهم.

والمنهج المتبع هو المنهج التاريخي والوصفي، وهو الأنسب لهذه الموضوعات، من حيث تتبع الأحداث والظواهر الفنية عبر المراحل التاريخية

أملي أن يستفيد أبناؤنا الطلبة من هذه المطبوعة، ويجدوا فيها إجابات لأسئلتهم، وتكون مرجعا للمهتمين بالأدب الصوفي وقضاياه.

و الله من وراء القصد... سامية بوعجاجة

المحاضرة الأولى: شعر الزهد والتصوّف

أوّلا: مفهوم الزهد، وتطور شعر الزّهد:

إنّ أول ما يثير انتباه المتلقّي، ويدعوه إلى السؤال، هو: ما المقصود بالزهد و ما معنى التصوف ؟ وهل هما شيء واحد ؟ أم هناك اختلاف بينهما ؟

1-تعريف الزّهد لغةً: ورد في مختار الصّحاح: " الزّهد ضدّ الرّغبة، تقول: زهدَ فيه وزهد عنه.. و التّزهدُ: التّعبّد، والزّهد القليل المال. وفي الحديث: " أفضل النّاس مؤمن مزهدٌ "[1]

وجاء في كتاب التعريفات: " الزهد في اللغة ترك الميل إلى الشيء، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: هو بغض الدنيا والإعراض عنها. وقيل: هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة، وقيل: هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك " [2]

وفي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **وكانُوا فيه منَ الزَّاهدينَ** ﴾[3] أي: زهدوا في النبي يوسف عليه السّلام، ولذلك باعوه بثمن بخس، جاء في التفسير: " وكانوا في **يوسف** من

[1]– الإمام الرازي، مختار الصحاح، تحق: عبد الفتّاح البركاوي، دار المنار، ص 140

[2] – الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحق: محمد عبد الرحمان المرعشلي، ط2، دار النفائس، بيروت، 1428 هـ، 2007 م، ص 184.

[3] – سورة يوسف، الآية 20

الزّاهدين الذّين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبدا آبقا فينتزعه سيّده من أيديهم، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان " [1]

ـــ **الزّهد اصطلاحا:** هو تيار أو حركة دينية، اختار سلوكها فئة من الناس عرفوا بالزهد، فقد آثروا الانصراف عن الدنيا و رغائبها. و الإقبال نحو الدار الآخرة، أي إعداد الزّاد لدار المعاد.

2- الزهد في العصر الأموي:

في العصر الأموي ظهرت طائفة كبيرة من الزهاد والعبّاد، الذين عرفوا بالصّلاح و التقوى، ومجاهدة النفس، و سلوك سبيل التقشّف والزهد في حطام الدنيا و نعيمها الفاني.

و كانوا في أفعالهم و مجاهداتهم يتأسون برسول الله ﷺ؛ فقد حقّر سيدنا المصطفى ﷺ من شأن الدنيا ورغّب في الدار الأخرى، و مما قاله في هذا الشأن: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " [2]

كما عاش حياة شظفة، ملؤها حب الله والخوف منه، واجتهاد في أداء العبادات، لكن من غير رهبانية أو غلو. و كذلك الأمر مع الصحابة فقد اقتدوا به في سلوكهم و عباداتهم " فاندفع كثير من الصحابة في حياة ناسكة، كلها تقوى و عبادة و رفض لزخرف

[1]- الشيخ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ط1، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، 1417 هـ، 1997 م، ص39

[2] – الإمام زين الدين الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحق: إبراهيم بركة، أحمد راتب عرموش، الشركة الجزائرية، ص 479 .

الدنيا و تقشّف، وابتهال إلى الله، وتوكل عليه، وانتظار لما عنده. ومن هؤلاء الصحابة معاذ بن جبل، وأبو بكر، وعلي وعمر.."[1]

أما عن الزهاد في العصر الأموي، فكانوا من جلة التابعين، فقد عرفوا بالصلاح والتقوى، والتقشف في الحياة، ومجاهدة النفس بكثرة العبادات، وقد ذكر الجاحظ في بيانه عددا من هؤلاء الوعاظ، الذين انتشروا في بيئات الحجاز والعراق والشام، ومنهم:أبو حازم

الأعرج والشعبي والحسن البصري، هذا الأخير كان يقول: " أدركت من صدور هذه الأمة قوما كانوا إذا جنّهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم " [2].

3-الزهد في العصر العباسي:

في هذه الفترة انتشرت موجة من المجون والزندقة وخاصة من طرف الموالي، ممن جاهروا بالمعصية وعرفوا بالخلاعة، واشتهر منهم: أبو نواس، بشار بن برد، والبة بن الحباب..

وفي المقابل انتشرت موجة من الزهد، وكثر الزهاد والوعّاظ، وانتشروا في مساجد الكوفة والبصرة وبغداد " وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذي الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأنّ الدنيا ينبغي أن تكون دار زاد لدار المعاد."[3]

[1] – شوقي ضيف، التطور التجديد في الشعر الأموي، ط8، دار المعارف، القاهرة، ص56

[2] – نفس المرجع، ص 57

[3]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، القاهرة، ص 399

ومن مشاهير الوعاظ النسّاك: محمود الوراق، محمد بن كناسة، عبد الله بن المبارك وغيرهم كثير.

فهذا عبد الله بن المبارك قد أرسل، وهو مرابط في الجهاد، إلى الفضيل بن عياض العابد المعروف، وكان مجاورا بمكة، فقال:

يا عابدَ الحرمينِ لو أبصرتَنا	* لعلمتَ أنّكَ في العبادةِ تلعبُ
من كان يَخضِبُ جِيدهُ بدموعِهِ	* فنحورُنا بدمائنا تتخضّبُ
أو كان يتعبُ خيلَهُ في باطلٍ	* فخيولنا يوم الصّبيحةِ تتعبُ
ريحُ العبير لكم ونحنُ عبيرُنا	* وهجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ[1]

من الشعراء الذين عرفوا بالزهد **أبو العتاهية**، فقد كان في مستهل حياته ماجنا، ثم بعد ذلك سار سيرة حسنة، وراح يدعو إلى فضائل الأخلاق، ويناجي أصحاب القبور،

ويدعو إلى العظة والتدبر، كل ذلك في لغة سهلة مشرقة، يفهمها العامة والخاصة " ولقد أكثر من ذكر الموت والوقوف على القبور والانتفاع بالمعاني القرآنية، مع أسلوب شعري سريع التقبل غير مغرب في اللفظ أو مغلق في المعنى، الأمر الذي جعل قصائده تذيع بين العامة قبل الخاصة وتجد حسن استجابة " [2]

[1] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، القاهرة، ص 403

[2] – مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط5، دار العلم للملايين، 1980، ص222

ويذكر في قصيدته اللاميّة تفاهة الدنيا، ومصير كلّ حيّ وهو الفناء، فنعى نفسه وصوّر نفسه وقد سجي نعشه في جدثه، ومن خلفه نسوة يبكين عليه، ويدعو إلى القناعة وترك جمع المال، يقول:

نَعى نفسي إليَّ مرّ اللّيالي * تصَرَّفهنَّ حالاً بعدَ حالِ

فمالي لستُ مشغولاً بنفسي * وما لي لا أخافُ الموتَ ما لي

لقدْ أيقنتُ أنّي غيرُ باقٍ * ولكنّي أراني لا أُبالي

وما لي عِبرةٌ في ذكرِ قومٍ * تفانَوا ربّما خطروا بِبَالي

كأنّ مُمرِّضي قد قام يمشي * بنعشِي بين أربعةٍ عِجالِ

وخلْفي نِسوةٌ يبكين شَجوًا * كأنَّ قلُوبهُنَّ على مقالِ

سأقنعُ ما بقيتُ بقوتِ يومٍ * ولا أبغي مُكاثرةً بمالِ[1]

ثانيا: مفهوم التصوّف، وتطور الشعر الصوفي:

1-التصوف لغة: ورد في بعض المعاجم الحديثة: لفظة تصوف مشتقة من الفعل(صوّف) وجعله صوفيا ؛ بمعنى تخلّق بأخلاق الصوفية، والصوفية فئة من المتعبّدين، واحدهم الصوفي. [2]

[1] – أبو العتاهية، شرح الديوان، ط3، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 1423هـ، 2002م، ص 175.

[2] – ينظر: لويس معلوف، المنجد في اللغة، ط 19، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص 441

وفي الاصطلاح، عرفه الشيخ أبو الحسن الشاذلي تعريفا موجزا فقال: " التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها لأحكام الرّبوبية " [1]

وفي بعض المعاجم، التصوف يعني: " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، لتزكو النفس وتسمو بالروح.

وعلم التصوف: مجموعة من المبادئ التّي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم " [2]

أما عن سبب التسمية ؛ فهناك من يرجعها إلى لبس الصوف من طرف المتصوفة، وهناك من ينسبها لأهل الصفّة وهم فقراء المدينة المجاورين لمسجد الرسول ﷺ ، ويرجع بها بعضهم إلى أصل يوناني " سوفيا " بمعنى الحكمة.

2-شعر التصوف في العصر العباسي:

كما مرّ بنا كثر في هذه الفترة الوعاظ والقصّاص، كما كثرت التيارات الفكرية والفلسفية، كما نجد أخلاطا من الشعوب والثقافات كاليونانية والفارسية.. كل هذا شكل المادة الأولية لتشكل النزعة الصوفية، وهنا لمسنا تأثرا واضحا بالمقولات الفلسفية والأفكار الدخيلة على الإسلام.

---

[1]- نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1429 هـ، 2008م، ص8

[2]- أحمد حسن الزّيات وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، اسطنبول، تركيا، ص529

ولكن يبقى أساس التصوف إسلاميا يستقي أصوله وأعمدته الأولى من شريعة الإسلام القائمة على توحيد الله تعالى والإقرار بالربوبية له، وطاعته في السر والإعلان، والإقرار بالحقيقة المحمدية.. وغيرها من الأصول.

في هذه الفترة ظهرت أولى ملامح التصوف متمثلة في ظهور " الحب الإلهي" وهو حب ينسي المتصوف كل موجود ويتجرد من كل حس ومادة،يفنى عشقا في الذات الإلهية، ولعل خير نموذج أبيات رابعة العدوية التي تقول فيها:

أحبكَ حبينِ: حبَّ الهوى	*	وحُبًّا لأنّكَ أهلٌ لذاكَا
فأمّا الذي هوَ حُبَّ الهوى	*	فشُغلي بِذِكرِكَ عمّن سِواكا
وأمّا الذي أنت أهلٌ لهُ	*	فكشفُك لي الحُجْبَ حتى أراكا
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي	*	ولكن لكَ الحمدُ في ذا وذاكَ [1]

[1] – شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص 402

المحاضرة الثانية: نشأة الأدب الصوفي

قبل ظهور التصوف كحركة دينية وفكرية، وكسلوك عملي آثر فريق كبير من الناس خاصتهم وعامتهم ارتياده وركوب موجته.

تجلت بدايات هذا التيار، بظهور موجة من المتدينين المتزهدين، الذين آثروا شظف العيش على نعيم الدنيا الفاني، واستحبوا حياة العزلة والانطواء على حياة البذخ ومخالطة الملوك والسلاطين، والطمع فيما في أيدي الناس وتملقهم لنيل رضاهم، على العكس من ذلك هناك من كان صاحب مال وثراء **كإبراهيم بن أدهم** ، الذي ترك حياة اللهو والغنى والدَعة وانطلق مسافرا إلى بلاد العراق والشام يطلب العلم ويجتهد جهده في العبادة، والعمل من كسب يده، فكان يزرع ويسقي الأرض ويحصد، ويجاهد في الله الكفّار حقّ الجهاد.

واستقوا من معين النبوة الفيّاض معاني الزهد والصبر والسماحة والقناعة، كما كان هديه عليه الصلاة والسلام خير سبيل للتائبين والصادقين والصابرين. وفي هذا المقام نلفي أحاديث كثيرة تزهّد في الدنيا وترغّب في الدار الآخرة لأنها دار الخلود والبقاء.

قال رسول الله ﷺ:(احذروا الدنيا فإنها خضرةٌ حلوةٌ) [1]

[1]– الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، كتاب الزهد، تحق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ،2002 م، ص 27

وكان يوصي أصحابه بالاحتراز من الدنيا، ويوصيهم بأن يكونوا كالغرباء أو عابري سبيل، من ذلك ما قاله عليه الصلاة والسلام لابن عمر – رضي الله عنهما –: (يا عبد الله كن في الدنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل، وعدّ نفسكَ من أهل القبورِ) [1]

وكان ﷺ يمثل حاله مع الدنيا كمثل رجل استظل في يوم قائظ تحت ظل شجرة، ثم تركها وراح إلى حال سبيله، يقول: (مالي وللدنيا: إنّما مثلي ومَثَل الدنيا كمثل راكبٍ قال " من القيلولة " في ظلّ شجرةٍ في يومٍ صائفٍ ثمّ راح وتركها) [2]

فالدنيا دار نكد ونصب، تغوي العبد بمفاتنها، وتهوي به في قعر شهواتها ؛ إن لم يتداركه لطف الله، ولم يتسلح بقوة إيمانه بخالقه، (عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري أنّه كان يحدث: أنّ رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ، فقال: " مُستريحٌ ومُستَراحٌ منه ". قالوا: يا رسول الله، ما المُستريحُ والمُستراحُ منه ؟ قال: " العبد المؤمن يستريح من نَصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد، والشّجر والدّواب ") [3]

والقرآن الكريم يوجهنا إلى سلوك السبيل الأمثل في الحياة الدنيا، بعبادة الله الواحد الأحد، وطاعته واتباع هدي نبيه عليه الصلاة والسلام، وأداء العبادات المكتوبة والنوافل ؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج..وتجنّب خطوات الشيطان، لأنّ الشيطان للإنسان عدو مبين.

---

[1] – الإمام أحمد بن حنبل، كتاب الزهد، مصدر سابق ، ص 22

[2] – نفس المصدر ، ص 21

[3] –الإمام البخاري، صحيح البخاري، ضبط النص:محمود محمود حسن نصّار، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425 هـ، 2004، ص 1187 (كتاب الرقاق

والزهد لا يعني بأي حال من الأحوال، اعتزال الناس والعيش في الكهوف والفلوات، ولبس الصوف، وترك العمل وطلب الاجتهاد، والسعي نحو الرزق الطيب، ومخالطة الناس بخلق حسن والتأثير فيهم نحو الأفضل، ولذلك كثيرا ما كانوا يتمثلون قوله تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ " [1]

وفي التفسير ورد: (" **ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** " أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى اللهِ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات.

" **ولاتنس نصيبك من الدنيا** " قال الحسن: أي لا تضيّع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إيّاه. "**وأحسن كما أحسن الله إليك** " أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك. " **ولا تبغِ الفسادَ في الأرضِ** " أي لا تطلب بهذا المال البغي والتطاول على الناس، والإفساد في الأرض بالمعاصي. ﴿ **إنّ الله لا يحبّ المفسدين** ﴾ أي لا يحب من كان مجرما باغيا مفسدا في الأرض.) [2]

من مشاهير الزهاد:

عاش في بيئات المسلمين رجال صلحاء عرفوا بالزهد والنسك ؛ ومن أشهرهم: الحسن البصري، فقد ربيّ في حجر (أمّ سلَمة أم المؤمنين وزوج رسول الله ﷺ) كما

[1] – سورة القصص، الآية 77

[2] – الشيخ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير – تفسير للقرآن الكريم – ج2، ط1، دار الصابوني، القاهرة، 1417هـ، 1997 م،ص 410

تتلمذ على كبار الصحابة، فأخذ عن عثمان بن عفّان وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس.. وغيرهم من الصحابة [1]

ومواعظه: " كلّها تنعى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرته، وما أعدّ له الله من ثواب وعقاب. ويحس الإنسان في مواعظه دائما بالرجفة والفزع من العذاب، وكأنّه يرى بعينه الجحيم، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد في حطام الدنيا، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والمحبة " [2]

ومن الشعراء الذين أجادوا في الزهديات، فذكروا الموت والمعاد، ودعوا إلى التقوى وصالح الأعمال، والعمل للدار الآخرة حتى يكون الجزاء من جنس العمل، وعرف بمناجاته للقبور، فيدعو إلى أخذ العبرة والتدبر في مآل البشر، فبعد أن كان الموتى أحياء ينعمون بالحياة وينهلون من مباهجها وترفها فإذا هم اليوم جماجم عريت وعظام نخرة، يقول الشاعر **أبو العتاهية** في هذا المعنى:

إني سألتُ القبرَ ما فعلَتْ	*	بعدي وجوهٌ فيك منعفره
فأجابني صيّرتُ ريحَهم	*	تؤذيكَ بعد روائحٍ عطره
وأكلتُ أجساداً منعّمةً	*	كان النّعيمُ يهزّها نضره
لم أبق غيرَ جماجمٍ عَرِيتْ	*	بيضٌ تلوحُ وأعظمٍ نخره [3]

ويروى أنّ هارون الرشيد طلب منه أن يعظه، فقال له:

[1] – ينظر:عبد الرحمان رأفت الباشا، صور من حياة التابعين، ط15، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، 1418 هـ، 1997 م، ص98

[2] – شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، مرجع سابق، ص 61

[3] – أبو العتاهية، الديوان، ص 105

لا تأمنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نفَسِ	* وإن تمنّعتَ بالحُجابِ والحرسِ
فما تزالُ سهامُ الموتِ نافذةً	* في جنبِ مدَّرعٍ منها ومتّرسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلكْ مسالكَها	* إنَّ السَّفينةَ لا تجري على اليَبَسِ [1]

فبكى الرشيد حتى اخضلّت لحيته.

ومن الزهاد عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وسفيان الثوري ومالك بن دينار ؛ هذا الأخير كثيرا ما كانت تخنقه العبرات إذا ما ذكر الموت أو وقف على القبور، يقول:

أتيتُ القبورَ فناديتُهـ	* نَّ أينَ المُعظَّمَ والمحتقَرْ
وأين المُدِلَّ بسلطانهِ	* وأينَ المُزكّى إذا ما افتَخَرْ
تفانوا جميعًا فما مُخبِرٌ	* وماتُوا جميعًا وماتَ الخبرْ
فيا سائِلي عن أناسٍ مضوا	* أمالَكَ فيما ترى مُعتبَرْ [2]

فطيلة القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري، ظلت قصيدة الزهد واضحة الفكرة، تستقي مادتها من القرآن الكريم والسنّة النبوية العطرة، وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، لغتها مشرقة لا لبس فيها ولا غموض، ألفاظها سهلة في الغالب الأعم، بعيدة عن التكلّف والتعقيد اللفظي.

[1] – مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء، ص 219

[2] – شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 400

وفي القرن الثالث الهجري، ونظرا للتطور الحضاري والتنوّع الثقافي خاصة في البيئة العراقية، وكثرة المدارس الفكرية والفلسفية كالاعتزال والجبرية والجهمية.. بدأت تطرأ على القصيدة الدينية تغيرات مما أدى إلى نشوء ما يسمى بالشعر الصوفي

ويعد **الحلاج** من كبار مؤسسي هذا التيار في ق3هـ، ومن أشهر أقواله:

اقتلوني يا ثقاتي	*	إنّ في قتلي حياتي
ومماتي في حياتي	*	وحياتي في مماتي
أنا عندي: محو ذاتي	*	من أجل المكرمات[1]

[1] – علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404 هـ، ص31

المحاضرة الثالثة: أقسام التصوف وقواعده

تطورت الحضارة الإسلامية، وتنوعت فيها المعارف والعلوم وتشعبت، ونتيجة للتنوع الفسيفسائي البشري، من فرس وروم وهنود وعرب.. فكان لهذا التلاقي والارتباط عن طريق الزواج والمصاهرة،أثره على النهضة الفكرية والأدبية، وكذا نشاط حركة الترجمة، وتشجيع الخلفاء خاصة العباسيين ؛ كأبي جعفر المنصور وحفيده هارون الرّشيد والمأمون..وغيرهم

فكانوا يشجعون العلماء، فيجزلون لهم العطاء ؛ وخاصة ممن لديهم إلمام ومعرفة بالثقافة اليونانية والفارسية..، من أجل الترجمة في مختلف العلوم خاصة في الطب والرياضيات والهندسة والكيمياء والصيدلة والفلسفة والمنطق وعلم الحيوان والنبات...

وقد أثر الإسلام بمبادئه ومعارفه التي أرساها، من نحو وفقه وبلاغة وإعجاز قرآني وعلوم شرعية وقراءات وغيرها، وللغة العربية بعلومها واشتقاقاتها ولهجاتها وتاريخها الرافد الأول والأصيل لهذه النهضة والتطور الحاصل على جميع الأصعدة.

وكان للتيارات الفكرية والمذاهب الفلسفية الإسلامية والفرق الكلامية من معتزلة وأشاعرة وفقهاء السنة والمتكلمين.. الأثر الكبير والإيجابي، من أجل إرساء قواعد نهضة إسلامية متينة تقوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وتحرير العقل من أباطيل الديانات الأخرى وأوهام الكهنوت وعقائد الوثنيين والمجوس ؛ لذلك حينما ترجم المسلمون عن الأمم الأخرى ترجموا العلوم، ولم يترجموا العقائد أو الآداب(اللهم إلا تلك الترجمات التي صدرت عن بعض الزنادقة من أصحاب الديانات الأخرى)، لأن العالم المسلم على اعتقاد جازم بصحة عقيدته، وما دون الإسلام فهو زيف وباطل.

لم يكتف المسلمون بالنقل والأخذ عن الآخر، فكانت لهم بصمتهم في التأليف والكتابة والاختراع، والتأسيس لعلوم جديدة ونظريات فريدة كان لها صداها الواسع في كل العالم.

فهذا أبو حنيفة النعمان برع في الفقه والقياس والإمام الشافعي صاحب الأحكام الصائبة والفتاوى الرائجة.. وابن سينا عرف ببراعته في الطب والخوارزمي ذاع صيته في علم الجبر والرياضيات وجابر بن حيان أرسى مبادئ علمي الفيزياء والكيمياء، وابن الهيثم صاحب علم البصريات، وهذا الفارابي وابن باجة وابن الطفيل عرفوا بتبحرهم في الفلسفة، وابن خلدون مؤسس علم التاريخ وعلم الاجتماع...وغيرهم من علماء الإسلام.

وأسهم العرب والأعاجم المسلمين بهذه النهضة " وعلى هذا النحو أصبح العقل العربي في العصر العباسي الأول عقلا متفلسفا كما أصبح عقلا علميا، لا من حيث فهمه وفقهه بعلوم الأوائل بل أيضا من حيث إسهامه فيها وإضافاته الجديدة حتى ليضيف علوما لأول مرة في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو ما أضاف الخوارزمي علم الجبر. وكان هذا العقل قد أظهر نضجه العلمي وإحكامه لوضع العلوم منذ القرن الثاني، مما نراه متجليا في العلوم اللغوية والدينية ومباحث التاريخ وعلم الكلام. " [1]

ونحن بهذه التوطئة نريد أن نظهر ما كان لهذا النشاط العلمي من أثر كبير على التصوف كاتجاه، وكمسلك وجودي لفئة من الناس.

[1] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص117

1-أقسام التصوّف:

التصوف طريقة وأصلها كما يقول بن خلدون: " العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة " [1]

من هذا المنطلق فالتصوف ينقسم إلى قسمين هما:

1 – **تصوّف سنّي:** " هو الذي تقيّد بالقرآن الكريم، والسّنة النبويّة، والعناية بالتّعبّد والزّهد، وهو يعمل على الملاءمة بين الحقيقة والشريعة، ويعتمد في ذلك آراء مشاهير العلماء الصوفيّة وأقوالهم " [2]

فالمتصوف كالفقيه في تقيده بمصادر التشريع الإسلامي من قرآن كريم وسنة مطهرة وإجماع وقياس، ويزيد عليه الذوق والوجدان، لأن التصوف ذوق وحس، أما الفقه فيقوم على العقل والمنطق. يقول أحمد أمين: " والتصوف يعتمد على الذوق والمواجيد أكثر مما يعتمد على المنطق. والعقل في نظرهم أداة غير صالحة، إن استطاع إدراك ظواهر الأشياء فهو لا يصلح مطلقا في استكناه الحقيقة، لأنّ العقل لا يعرف إلا ما يقع عليه الحس، أي لا يعرف الأشياء إلاّ في ظواهرها. أما الأشياء في حقائقها وكنه وجودها فمن وراء طاقته أبدا " [3]

والمتصوفة ينطلقون من المقولة السائرة: " رأس الحكمة مخافة الله " ومخافة الله لا تتحقق قولا وعملا إلاّ بمعرفة الله تعالى حقّ المعرفة، والإيمان بوحدانيته، ربّا خالقا معبودا

---

[1] – أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج4، ط1، دار الأصالة، الجزائر، ص 118

[2]– محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص 13

[3] – أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج4، مرجع سابق، ص118،119

مسيرا للكون وللوجود، ولذلك بنى شيوخ هذه الحركة قواعدهم " على أصول صحيحة في التوحيد، وصانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السّنة من توحيد، ليس فيه تمثيل، ولا تعطيل، وعرفوا ما هو حقّ القدم، وتحقّقوا بما هو نعت الموجود عن العدم... قال الجنيد: إنّ أول ما يحتاج إليه العبد من الحكمة، معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، ويذل لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته " [1]

2 – **التصوّف الفلسفي:** ينطلق من الفلسفة، ويبحث في أهم القضايا ذات الصلة بالفلسفة والتصوف المتعلقة بالوجود والماهية والصفات والفرق بين الذوق والنظر..، كما أثاروا بعض القضايا التي قد لا يوافق عليها العقل، وتتناقض تناقضا تاما مع الشريعة أو المنطق.. ومما يتميز به الأدب الصوفي الفلسفي كثرة الرموز وتنوعها، وهذه السمة هي التي تجعل منه أدبا عسير الإدراك، مستعصي الفهم. " [2]

2–قواعد التصوّف:

يستقي التصوف مادته الروحية والخلقية من تعاليم الإسلام ومبادئه السمحة، ولذلك فقواعد التصوف خمسة وهي:

1 – صفاء النفس ومحاسبتها: فمن أراد سلوك العارفين عليه أن يتهيأ للقاء الله، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله تعالى، ويصفي نفسه من الوساوس والأضغان.

[1] – الإمام القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية، ط3، دار صادر، بيروت، 2011، ص 13، 14

[2] – محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي، مرجع سابق، ص14

قال تعالى: " ﴿**ونفسٍ وما سوّاها، فألهمها فجورَها وتقواها، قد أفلحَ من زكّاها، وقد خابَ من دسّاها.** ﴾[1]

2 – قصد وجه الله: أن يقصد المتصوف وجه الله تعالى قولا وعملا، ويخلص في عمله لله تعالى، لا يريد رياء ولا جزاء من أحد. قال تعالى: " ﴿**وما لِأحدٍ عندهُ من نعمةٍ تُجزى إلاّ ابتغاءَ وجهِ ربّهِ الأعلى ولَسوف يرضى** ﴾ [2]

3 – التّمسك بالفقر والافتقار: ويقصد به الزهد في الدنيا، وتوطين النفس على التقشف، والرضى بالقليل " والافتقار هو تجرد المرء من زينة الحياة لينقطع لتقوى الله بخشية وخشوع مظهرا الافتقار إلى الله وأنه لا حول له ولا طول إلا به. طالبا منه التكرم عليه بالإمدادات و التجليات. "[3]

3 – توطين القلب على الرحمة والمحبّة: فالصوفي محب لربه وللمسلمين، يرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم " فإن رسخ في هذه القاعدة واستقام في التدرب عليها، أفاض الله عليه أنوار الرحمة وأذاقه حلاوة الرضا وألبسه ثوب القبول " [4]

فقد كتب الرحمان على نفسه الرحمة، ونبيه هو الرحمة المهداة للعالمين. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " **لما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش إنّ رحمتي تغلب غضبي** " [5]

---

[1] – سورة الشمس، الآية: 7–8–9–10.

[2] –سورة الليل، الآية: 19 – 20–21.

[3] – محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، القاهرة، ص 16

[4] – نفس المرجع، ص 16

[5] –الإمام الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحق: أحمد راتب عرموش، إبراهيم بركة،ج1، ص 510

4 – التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لتمامها: فقد ورد قوله ﷺ: " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** " فالصوفي عليه أن يتمثل أخلاق النبي، في رفقه بالضعفاء والمساكين وفي رحمته وبره باليتيم، وفي تواضعه ولين جانبه للمسلمين. قال تعالى: ﴿ **محمدٌ رسولُ الله والذّين مَعهُ أشدّاءُ على الكفارِ رُحماءُ بينَهم تَراهُم رُكّعًا سُجّدًا** ﴾ [1]

[1] – سورة الفتح، الآية 29

المحاضرة الرابعة: الحب الإلهي

الحب الإلهي أساس التصوف وروحه، فالمتصوف في رحلته الكشفية، يجهد ويجتهد لبلوغ هذه المرتبة العظيمة، بمعرفة محبوبه ووصله والتشوّق إليه، ونيل محبته ورضاه، ولن يصل إلى هذه المرتبة السنية والدرجة الرفيعة إلاّ بالارتقاء من حال إلى حال، والسفر من مقام إلى مقام.

فالله سبحانه وتعالى سرّ الوجود وأصله، خلق الكون وأبدع فيه، خلق الإنسان في أحسن صورة، جعل له السمع والبصر والفؤاد ليشكر الله على نعمائه، ويعبده وحده لا يشرك به شيئا، سخر له الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار.. ليتدبر ويتفكر في آيات الله وأسباب خلقه، وليعلم أنّ الله يختبرهم أيّهم أحسن عملا. قال تعالى: ﴿ **وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيّامٍ وكانَ عرشُهُ على الماءِ لِيَبلُوكم أيُّكُم أحسنُ عملاً** ﴾[1]

فالمحبة عاطفة فياضة تغمر القلب، وتجعل الجوارح لا تشعر بالسعادة والأنس إلاّ بجوار المحبوب " والحب هو ميل القلب والعواطف إلى المحبوب، وحب العبد لله شرعا هو طاعة أوامره واجتناب معاصيه، أما الحب الإلهي تصوفا فقد أشار إليه أبو سعيد الخراز فقال: طوبى لمن شرب كأسا من محبّته، وذاق نعيما من مناجاة الخليل وقربه، بما وجد من اللذات بحبه، فملئ قلبه حبّا، وطار بالله طربا، وهام إليه اشتياقا، فيا له من وامق أسف، بربه كلف دنف، ليس له سكن غيره، ولا مألوف سواه " [2]

[1] – سورة هود، الآية 7

[2] – محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 199، 200

والمحبّة تتردد في كتاب الله وسنّة نبيّه، كما تتردد في طاعة العبد لخالقه وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار، تتجلى أوضح جلاء في أداء العبادات والنوافل " ودوام ذكر الله وتسبيحه والتّأمل في ملكوته والتّوبة إليه والتّوكّل عليه والخلوص له والانقياد والاستسلام الكامل بالقلب ظاهرا وباطنا حتى لا يبقى في القلب موضع لغيره " [1]

ومحبة الله تعالى بصدق تتضح في اتّباع أوامره والانتهاء عند نواهيه، وترك المحرمات واجتناب المعاصي، وإظهار الشكر والحمد لأنعمه وجزيل عطائه، يقول محمود الوراق:

تعصي الإلهَ وأنتَ تظهرُ حبَّه * هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

لو كنتَ تُضمرُ حبَّهُ لأَطَعتَهُ * إنَّ المحبَّ لِمَن أَحبَّ مُطيعُ

في كلِّ يومٍ يبتليكَ بنعمةٍ * منهُ وأنتَ لشكرِ ذاك مُضيعُ [2]

ففي كتاب الله تعالى آيات كثيرة، تبيّن محبته تعالى لعباده المؤمنين، كما تظهر محبة المؤمنين لخالقهم وشوقهم لرؤيته ونيل رضاه سبحانه. ومنه قوله تعالى: ﴿ **فسيأتي اللهُ بقومٍ يحبّهم ويحبُّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ** ﴾ [3]

وقوله تعالى: ﴿ **قل إن كُنتم تُحبُّونَ اللهَ فاتّبعوني يُحببكمُ اللهُ ويغفرْ لكُم ذنوبكُم واللهُ غفُورٌ رحيمٌ** ﴾ [4]

[1] – شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده ط2، دار المعارف، القاهرة، ص200

[2] – شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 410

[3] – سورة المائدة، الآية 54

[4] – سورة آل عمران، الآية 31

وفي السنة النبوية ورد قوله ﷺ: " **ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ: أن يكون اللهُ ورسولهُ أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرءَ لا يحبّهُ إلاّ لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكُفرِ كما يكرهُ أن يُقذفَ في النّارِ** " [1]

وفي الحديث القدسي، قال رسول الله ﷺ: " **من عادى لي وليًّا فقد آذنتهُ بالحربِ، وما تقرّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممّا افترضتُهُ عليهِ، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتّى أُحبَّهُ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ بهِ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ، ويدهُ التي يبطشُ بها ورجلهُ التّي يمشي بها، ولئن سألني لَأُعطينَّهُ، ولئنْ استعاذ بي لأُعيذنّهُ** " [2]

ومن اصطلاحات المتصوفة: الشوق والعشق والحب والوجد والفناء والبقاء.. فالحب عند المتصوفة يجعل من الحب العذري منطلقا وأرضية خصبة في تصوير أحوال المحب ودقائق شعوره، واكتوائه بنار الفراق ؛ لكنه حب لا لسعاد ولا بثينة ولا لبنى أو ليلى، بل هو حب للذّات الإلهية وشوق إلى مناجاتها، والاقتراب منها ووصلها حتى يتحقق الفناء والانمحاء فيها. وهذا المعنى الفلسفي الدقيق أول من أسّس له سلوكا ونظما، **رابعة العدوية**، تلك المرأة الزاهدة، التي هامت وجدا بحب الله، وأسست لمدرسة عشقية فريدة من نوعها، مؤداها أنّ حبها لله خالص من دون مآرب أو غايات دنيوية أو أخروية، فهي تقول: بأنني لم أحبك طمعا في جنانك، ولا أحببتك خوفا من نيرانك، إنّما أحببتك لذاتك، تقول في ذلك شعرا:

[1] – الإمام البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ص18 (باب الإيمان

[2] – الإمام الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، ص483، 484

كلهم يعبدون من خوفِ نار	*	ويرون النجاةَ حظًا جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنانَ فيحظوا	*	بقصورٍ ويشربوا سلسبيلا
ليس لي في الجِنانِ والنّارِ حظّ	*	أنا لا أبتغي بحبّي بديلا [1]

وتصور حبها لله، فهي دائمة الانشغال به، شديدة التعلق باسمه وصفاته، الجسم مع الناس والروح تسبح في ملكوت الله تعالى، تقول:

إني جعلتُك في الفؤادِ محدّثي	*	وأبحتُ جسمي من أراد جلوسي
فالجسمُ منّي للجليسِ مُؤانسٌ	*	وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

أما الحلاج شهيد العشق فيقول ؛ وقد فنت روحه وذابت ولهًا وشوقا، يقول:

رأيتُ ربي بعينِ قلبي	*	فقلتُ: من أنتَ ؟ قال: أنتَ
فليسَ لِلأينِ منكَ أين	*	وليسَ أينَ بحيثُ أنتَ
وليسَ للوهمِ منكَ وهمُ	*	فيعلمُ الوهمُ أين أنتَ
أنتَ الذّي حُزتَ كلَّ أينٍ	*	بنحو " لا أين " أينَ أنتَ ؟
ففي فَنائي فنا فنائي	*	وفي فَنائي وجدتُ أنتَ
في محوِ اسمي ورسمِ جسمي	*	سألتُ عنّي فقلتُ: أنتَ
أشارَ سرّي إليكَ حتّى	*	فنيتَ عنّي ودُمتَ أنتَ
أنت حياتي وسرُ قلبي	*	فحينما كنتَ كنت أنت
أحطتَ علما بكلِّ شيءٍ	*	فكلَّ شيءٍ أراهُ أنتَ

[1] – محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص201،202

فمُنَّ بالعفوِ يا إلهي	*	فليسَ أرجو سواكَ أنتَ [1]

أمّا سلطان العاشقين **ابن الفارض** فقد شدا وغرّد، وحلّقت روحه عشقا وولها في المدى ؛ ومما قاله:

أدِر ذكرَ من أهوى ولو بِملامِ	*	فإنّ أحاديث الحبيبِ مُدامي
لِيشهدَ سمعي مَن أحبَّ وإن نأى	*	بطيفِ ملامٍ لا بطيفِ منامِ
فلي ذكرُها يحلو على كلِّ صيغةٍ	*	وإن مزجوهُ عُذّلي بخِصامِ
بروحي من أتلفتُ روحي بحبّها	*	فخان حِمامي قبل يومِ حِمامي
ومن أجلِها طاب افتضاحي ولذَّ لي اطّرا	*	حي وذلّي بعد عزِّ مقامي
وفيها حلالي بعد نُسكي تهتُّكي	*	وخَلعُ عِذاري وارتكابُ أثامي
أصلّي فأشدو حين أتلو بذِكرِها	*	وأطربُ في المحرابِ وهي إمامي
وبالحَجّ إن أحرمتُ لبّيتُ باسمها	*	وعنها أرى الإمساكَ فطرَ صيامي
أروحُ بقلبٍ بالصّبابةِ هائمٍ	*	وأعدو بطرفٍ بالكآبة هامِ* [2]

[1] – علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، 34

[2] –ابن الفارض، الديوان، شرح: هيثم هلال، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1429 هـ–2008، ص125.

- هام: من هَمت العين إذا سالت بالدمع

المحاضرة الخامسة: الحلول والاتحاد

اختلف المتصوفة في دلالات هذه الكلمة، وفي ماهية استعمالاتها، بل يذهب كل فريق فيها مذهبه الخاص، ويأولها من منظور تجربته الذوقية، وبحسب الأحوال والمقامات التي يعاينها.

ومن المصطلحات التي كثر تداولها عند المتصوفة وهي قريبة من مفهوم الحلول ؛ مصطلح الفناء في الذات الإلهية، ويقصد به:" بطلان شعور المحب بكل ما حوله فلا يدرك في خارج نفسه شيئا " [1]

والمتصوفة يرون أنّ الله يتجلى في كل شيء، في الإنسان والكائنات والكون " فالصوفي بشكل أو بآخر لا يرى إلا بالله ولا يرى إلا الله، وبما أن العالم مخلوق والله هو خالقه فأنت حين تنظر المخلوق ترى الخالق بشكل ما، فلا يمكن الفصل بين المبدع وإبداعه فهما شيء واحد، فإبداعه هو ذاته، صورة عنه ومثال يقود إليه " [2]

وشاع عند المتصوفة مصطلح قريب وهو وحدة الوجود ؛ لأن المحب يفنى في محبوبه ويحب بكل قلبه حتى لا يكون هناك فرق بين محب ومحبوب [3]

ووحدة الوجود برز بشكل واضح في كتابات ابن عربي " ومعنى القول بوحدة الوجود أن العالم والله شيء واحد. وبيان ذلك أن المتكلمين والفلاسفة مثلا يرون الوجود

[1] – علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي، ص 89

[2] – سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، ط1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت، ص 158

[3] – ينظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج 4، ص125

وجودين، واجب الوجود وممكن الوجود، فواجب الوجود ما كان وجوده لذاته، وممكن الوجود ما وجد

سبب، والأول أزلي أبدي، والثاني محدث فان " [1]

أما مذهب **الحلول** فأول من قال به وعرف به هو الحلاج، وهو يرى أن الله والعالم امتزجا؛ لتحل الذات الإلهية في الذات الناسوتية، فيحدث الاتحاد التام بين المحب والمحبوب ليصيرا شيئا واحدا " وفي هذه الحالة يتحدث الفاني عن الله بصيغة المتكلم لأنه قد صار وهو شيئا واحدا، فليس غريبا إذن أن يقول (سبحاني ما أعظم شأني) وحقيقة قوله: سبحاني أعظم من أن يفهمه مفهم ويعلمه عالم إلا بعد فنائه عن نفسه بكليته حتى يبقى الحق بالحق مع الحق، فهي إشارة منه به إليه، وتلك إشارة إلى تنزيه الرجال بعد إدراك الكمال ونهاية الجمال وغاية الجلال والقرار على حال ليس وراءها حال." [2]

وقد لجأ المتصوفة في تصوير أحوال العشق والحب في أشعارهم إلى قصائد الغزل عند مجنون ليلى وجميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة وغيرهم، لما لهم من القدرة الفنية واللغوية على رصد أجواء الحب الإنساني، والتعبير عن أحوال العاشقين ومواجدهم " وقد فطن الصوفية منذ القديم إلى أنّ هذا التشابه لا بد أن يفتح عليهم قالة السوء فلم يتركوه بلا تعليل، وملخص كلامهم أنهم إنما لجأوا إلى هذا الأسلوب الإنساني في الغزل خشية على معانيهم أن تضيع عند غير أهلها ممن لا يفهمونها أو خشية على أنفسهم من أن ينسبهم أهل الظاهر إلى الكفر فيسلطون عليهم من يهددهم في حريتهم أو حياتهم، أو

[1] – أحمد أمين، مرجع سابق، ص 126

[2] – عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، دار العراب، دار نور، دمشق، 2010، ص 287

أنهم لجأوا إلى هذه الأساليب لأنهم لم يجدوا وسيلة لشرح معانيهم وتقريبها إلى الأذهان خيرا منها، وهذا التعليل الأخير أقوى ما ذكروه وأدناه إلى القبول. " [1]

وقد عبر **الحلاج** عن مذهب الفناء أو الحلول في هذه الأبيات، فقال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	*	نحن روحان حللنا بدنا
نحن مذ كنّا على عهد الهوى	*	تضرب الأمثالُ للناسِ بنا
فإذا أبصرتني أبصَرتــــهُ	*	وإذا أبصَرتـهُ أبصرتَــنا
أيّها السائلُ عن قصتــــنا	*	لو ترانا لم تُفرّق بينـــــنا
روحُهُ روحي وروحي روحُهُ	*	من رأى روحينِ حلّتْ بدنا [2]

أما **ابن الفارض**، وهو من القائلين **بالإتحاد** في شعره، يصف الفناء في الذات الإلهية، فيقول:

أنتم فروضي ونفلي	*	أنتم حديثي وشغلي
يا قِبلتي في صلاتي	*	إذا وقفتُ أصّلي
جمالُكم نصبَ عيني	*	إليهِ وجّهتُ كلّـــي
وسرّكم في ضميري	*	والقلبُ طورُ التجلّي

[1] – عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي ، مرجع سابق، ص289

[2] –علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي، ص 258

آنستُ في الحيِّ نارا	*	ليلاً فبشّرتُ أهلي
قلتُ: امكثوا، فلعلّي	*	أجدُ هُدايَ لَعلّي
دنوتُ منها فكانت	*	نارَ المُكلَّمِ قبلي
نُوديتُ منها كِفاحًا:	*	ردّوا ليالِيَ وصلي
حتى إذا ما تدانى الـ	*	ميقاتُ في جمعِ شملِ
صارتْ جبالِيَ دكًّا	*	من هيْبةِ المُتجلّي
ولاح سرٌّ خفيٌّ	*	يدريهِ من كان مثلي
فالموتُ فيه حياتي	*	وفي حياتي قتلي
أنا الفقيرُ المُعنّى	*	رِقّوا لحالي وذلّي [1]

[1] – ابن الفارض، الديوان، ص 119، 120

المحاضرة السادسة: الحقيقة المحمدية

1-مفهوم الحقيقة المحمدية:

من بين أقدم النظريات الفلسفية التي تداولها المتصوفة على مدار القرون والأزمان ؛ مقولة ‹‹ الحقيقة المحمدية ›› ويقصد بها أن النور المحمدي أزلي، وهو أصل الوجود، وأول شيء خلقه الله تعالى وكل موجود يستمد منه ‹‹ فهو مبدأ الوجود والحياة وهو المحور الذي تدور من حوله أفلاك الوجود كله، وهو بذلك منبث في كل موجود، بل هو روحه ونوره الذي يفرض عليه. وهو نور تجسم في صورة آدم وصور الأنبياء من بعده. وهو يتجسم بعد الرسول ﷺ في صور الأولياء من أقطاب الصوفية، إذ يستمدون من نوره ما يجعلهم يشعرون لا بالمحبة العميقة إزاءه، بل بالفناء على نحو فنائهم في الذات العلية›› [1]

أول من تحدث عن النور المحمدي وأفاض في ذكره، وجعله مصدر الخلق جميعا هو الحلاج، فمن نوره صدرت جميع المخلوقات، وهو أصل الوجود وحقيقته، ومن نوره شعت أنوار النبوات جميعا، يقول الحلاج في كتابه " الطواسين ": ‹‹ أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم، سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم، وجوده سبق العدم، واسمه سبق القلم، لأنه كان قبل الأمم. ›› [2]

[1] – شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص 230، 231

[2] –عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، ص 353 (نقلا عن: الطواسين، ص 11

وبهذا المفهوم اتجه الصوفية نحو تقديس شخصية الرسول ﷺ وأضفوا عليه هالة من التقديس تصل إلى حد التأليه عند بعضهم ؛ وهذا مجانف ومناف لجوهر هذا الدين، الذي يقرر حقيقة بشرية الأنبياء ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن وحي نظرية النور المحمدي للحلاج، سار المتصوفون من بعده في أثره، فنادوا بنفس الفكرة ولكن بتسميات مختلفة مثل: (الإنسان الكامل) أو (القطب، الغوث) التي تحدث عنها باستفاضة ابن عربي.

وهي فكرة مستقاة من عناصر أجنبية ‹‹ فالعنصر المسيحي فيها ظاهر، والنظرية ليست مسيحية الأصل، ولكنها يونانية نقلت إلى المسيحية ثم نقلها الحلاج إلى التصوف كما نقلها غيره إلى العقائد الأخرى.›› [1]

تحدث ابن عربي عن هذه النظرية، أو ما سماه **بالإنسان الكامل** فرأى بأن له وجهين هما: الوجه الأول يرتد إلى حقيقة معنوية روحية سارية في الكون كله من أعلاه إلى أدناه هي **الحقيقة المحمدية**، أما الوجه الثاني هو تجليها وظهورها في صورة كونية تنتمي إلى عالمي الغيب والشهادة [2].

2 – الحقيقة المحمدية في مدائح المتصوفة:

ذاعت المدائح النبوية منذ مفتتح الدعوة الإسلامية، ومن أوائل شعراء المديح النبوي: حسان بن ثابت، وكعب بن زهير والنابغة الجعدي.. وغيرهم، ثم مع مرور الأعوام وتوالي الحقب والعصور، انتشر هذا النوع من الشعر في البيئات الإسلامية، وتعاظم دوره

[1] – عبد الحكيم حسان، مرجع سابق،ص 353

[2] – ينظر: أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1428،2008، ص 204

في عصور تقهقر حكم المسلمين للأندلس وزمن الحروب الصليبية، وغزو التتار للشرق الإسلامي.

ورغم أن ما يقال من شعر بعد الوفاة هو رثاء ؛ لكن ما قيل عن الرسول ﷺ لا يعد رثاء أو بكاء، لأن شخصية المصطفى، ورسالته السماوية، وسيرته العطرة وهديه وشمائله حية على مر الدهور، وهي في قلب كل جيل، وفي نبض كل جنس من البشر وعرق من الأعراق ؛ ممن يتبعون هديه ويؤمنون بنبوته. بل إن سيرته لَتحضر في قلوب أتباعه كلما اشتد الخطب ونزلت الأرزاء والكرب في أقطار بلاد المسلمين، وهذا ما يفسر كثرة المدائح في القرنين السادس والسابع الهجريين، وقوة ونصاعة ما قيل من أشعار مدحية.

ويتسم المديح النبوي بجمال الأسلوب، وعمق المعنى، وقوة الشعور وصدق العاطفة، والنهل من منابع القرآن الكريم والشريعة الغراء، وصفاء السيرة النبوية العطرة ‹‹ ويدوي المديح النبوي في كل مكان، ويتكاثر في كل بيئة، وخاصة بيئة المتصوفة الذين جعلوا محبة الرسول ﷺ جزءا من محبة الذات الإلهية، بل إن محبتهما واحدة، وحقيقتهما واحدة، فلا فرق بين الحقيقة المحمدية والحقيقة الإلهية، إذ هما جميعا روح كل كائن وحياة كل

وجود، وما محمد إلاّ الكلمة الإلهية التي تمثلت في الأنبياء وتتمثل في أقطاب الصوفية من بعدهم. ›› [1]

[1] – شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص 232

من أشهر شعراء المدائح النبوية **الإمام شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد البوصيري** (ت 698) وهو من أتباع الطريقة الشاذلية التي انتشرت بقوة في مصر، رغم أن أصولها مغربية (شيخ الطريقة أبو الحسن الشاذلي من مواليد تونس)

ففي أبيات شعرية، يصور الرسول ﷺ بأنه علة الوجود وسره وروحه وحجة الله في الكون، يقول:

محمد حجّة اللهِ التي ظهرتْ	*	بسنّةٍ ما لها في الخلقِ تحويلُ
من كمّلَ اللهُ معناهُ وصورتهُ	*	فلم يفتهُ على الحالينِ تكميلُ
من آدمٍ ولحينِ الوضعِ جوهرُهُ الـ	*	مكنونُ في أنفسِ الأصدافِ محمولُ
فللنبوّةِ إتمـامٌ ومبتـــــدأ	*	بهِ وللفخْرِ تعجيلٌ وتأجيـــــلُ [1]

ونظم الشاعر همزيته في أربعمائة وخمسين بيتا، وسماها " أم القرى في مدح خير الورى" وهي قصيدة اشتهرت مشرقا ومغربا وعارضه الشعراء قديما وحديثا وخمسوها وشطروها ؛ ويعرض فيها لحياة نبينا من مولده إلى وفاته، كما يصور مختلف الجوانب التي اعترضت مسار دعوته، فيصور شمائله، ومغازيه وجهاده، وهجرته وأعماله، وهديه وسنته وصبره ومعجزاته..كما يصور نوره الأزلي الذي يسري في جميع الأنبياء وفي الكون ككل، يقول:

[1] – شوقي ضيف، مرجع سابق، ص 238

كيف ترقى رُقيّكَ الأنبياءُ	*	يا سماءً ما طاولتها سماءُ
لم يساووكَ في عُلاكَ وقد حا	*	ل سناً منك دونهم وسناءُ
إنّما مثّلوا صفاتك للنـــــــاسِ	*	كما مثّل النّجومَ المـــــاءُ
أنت مصباحُ كلّ فضلٍ فما تصْـ	*	درُ إلاّ عن ضوئكَ الأضواءُ[1]

وينظم قصيدة أخرى فاقتها شهرة ومكانة، وهي قصيدته الميمية المسماة ب**البردة**، فقد ذاعت في مشرق الأرض ومغربها في عصره والعصور المتتالية، وظل العامة يتغنون بها في المساجد والزوايا ومختلف المناسبات الدينية وخاصة في الاحتفالات بالمولد النبوي الشريف، كما احتفى بها الأمراء وعلية القوم في مجالسهم وأنديتهم وأسمارهم، بل إن شهرتها امتدت إلى زمان الناس هذا ‹‹ وقد ترجمها بعض المستشرقين إلى لغاتهم، فترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية. وما يتلوها أحد حتى تصغى إليه الآذان والقلوب لعذوبتها وجمال جرسها وتمكن قوافيها. ›› [2]

استهل الشاعر مدحيته بمقدمة غزلية، يتشبب فيها بفتاة حجازية من بني سلم على عادة الشعراء القدامى، فيقول:

أمن تذكرِ جيرانٍ بذي سلَمِ	*	مزجتَ دمعا جرى من مُقلةٍ بدمِ
أمْ هبّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ	*	وأومضَ البرقُ في الظلماءِ من إضمِ
فما لعينيكَ إنِ قلتُ اكففا همتا	*	وما لقلبكَ إن قلتَ استفقْ يهمِ

[1] – شوقي ضيف، مرجع سابق ، ص240، 241

[2] – نفسه، ص 246

أيحسبُ الصَّبُ أنّ الحبَّ مُنكتمٌ	*	ما بين مُنسجمٍ منهُ ومُضطرمِ
يا لائمي في الهوى العُذريِّ معذرةً	*	منّي إليكَ ولو أنصفتَ لم تلمِ [1]

ثم يتغنى بالنبي المصطفى ويثني على محامده ويعدد مناقبه، فهو سيد الكونين، وأشرف العرب والعجم، الله اصطفاه واجتباه فهو خير أنبياء الله تعالى، صادق في أقواله، طيب في فعاله، يقول:

محمدٌ أشرفُ الأعرابِ والعجمِ	*	محمدٌ خيرُ من يمشي على قدمِ
محمدٌ تاجُ رسلِ اللهِ قاطبةً	*	محمدٌ صادقُ الأقوالِ والكَلِمِ
محمدٌ حُييتْ بالنورِ طينتُهُ	*	محمدٌ لم يزَلْ نورًا من القِدمِ
محمدٌ يومَ بعثِ الناسِ شافعنا	*	محمدٌ نورُهُ الهادي من الظُّلمِ [2]

[1] – شوقي ضيف، مرجع سابق ، ص 246، 247

[2] – نفس المرجع، ص 253، 254

المحاضرة السابعة: الرمز الصوفي

استعمل المتصوفة اللغة استعمالا خاصا، واتخذوا من الرمز مطية للتعبير عن أحوالهم وما يعايشونه من مواجد. فعالم المتصوفة عالم متموج غني بالإيحاءات والرموز والإشارات فهم يعبرون عن حالة خاصة، ويقفون أمام عالم لا تحيط به العقول، ولا تدركه الأبصار، عالم من المثالية البرزخية ومن المشاهدات الروحية الربانية، فسبيلهم الإلغاز والرمز لا الإيضاح والتقرير.

ونظرا للميزات الفنية البليغة التي يتلبسها الرمز ؛ بوصفه وسيلة إيحائية تتصف بالإيجاز والبلاغة والمجاز، فقد جعلها الشعراء المتصوفة أداتهم الأولى في التعبير عن أحوالهم النفسية، وتجاربهم الروحية الذوقية، التي لا يستطيعون توصيفها بصورة مباشرة

1-**تعريف الرمز**: للرمز تعريفات كثيرة منها:‹‹ كيان حسي يثير في الذهن شيئا آخر غير محسوس، أي أنه يبدأ من الواقع، ولكنه بالخطوة التالية يجب أن يتجاوزه إلى ما وراءه من معان مجردة ›› [1]

وهناك من الدارسين من عدّ الصورة الرمزية وسيلة فنية تقوم مقام التشبيه والاستعارة والكناية في التصوير، ومحاورة النصوص واستنطاق اللغة ‹‹ إننا نرى أن الصورة الرمزية وسيلة فنية يمكن أن تقوم بعبء التعبير عن تجارب الشعراء وتوصيلها

[1] – محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ط2، دار المعارف، مصر،1978، ص304

إلى المتلقين، مثلها في ذلك مثل الصورة التشبيهية أو الاستعارية أو الكنائية أو المجازية المرسلة مع اختلاف في طبيعة كل نوع من هذه الأنواع ›› [1]

أما عن سبب لجوء الصوفية إلى الرمز مردّ ذلك بالدرجة الأولى إلى الخوف من بطش السلاطين، و الفقهاء وجمهور العامة ؛ فكثيرا ما حملت أقوالهم وكتاباتهم على محمل الكفر والخروج على الملة، وخير دليل على ذلك الحلاج الذي اتهم بالكفر والمروق عن الدين، فألقي به في السجن ثم عذّب وصلب في نهاية المطاف وأحرقت كتبه وأشعاره بإيعاز من الحكام. والسبب الآخر هو قصور اللغة في التعبير عن أحاسيسهم وتجاربهم الوجدانية

‹‹ وفي هذا تخبرنا كتب تراجم الصوفية أن هؤلاء دفعوا ثمنا باهظا بسبب افتضاح عقائدهم خطأ وعن غير قصد، أو بسبب إعلانهم عنها وقد اضطهدوا على الدوام، وكانت أصغر عقوبة تنزل بهم هي الشتم والاستهزاء ››[2]

2-أنواع الرمز الصوفي:

1 ــ رمز المرأة: حظيت المرأة على مرّ العصور باهتمام الشعراء والأدباء، من خلال المقدمات الغزلية، وقصائد النسيب.

وقد نهل الصوفيون من القصيدة الغزلية -وخاصة قصيدة الغزل العفيف – للتعبير عن حالة العشق والوله بالذات الإلهية ‹‹ والحق أن بواكير رمز " المرأة " في شعر الحب

[1] – فايز الداية، جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1424هـ، 2003، ص 175

[2] –هيفرو محمد علي ديركي، جمالية الرمز الصوفي،ط1، دار التكوين، دمشق، 2009، ص61

الصوفي، إنما تكمن في طائفة من الأشعار والروايات التي تناقلها الرواة عن شخصية قيس بن الملوّح أو مجنون ليلى. باعتبار أن شعره يمثل تيار الغزل العذري العفيف أصدق ما

يكون التمثيل، كما أن شخصيته التي ظهرت في الروايات المأثورة متسمة بطابع جنوني، تعد إرهاصا مبكرا لما شاع عند الصوفية من أحوال الوجد والفناء والذهول والاستغراق والجنون. ›› [1]

فأشعار العذريين وتصوير أشواقهم لمحبوباتهم، ووصف آلام الفراق والبعد، وجد فيها المتصوفة المادة والزاد للبوح بمشاعرهم ومحبتهم للذات الإلهية، وهو حب فيه مزج بين الحب الإنساني والحب الإلهي، ولا ينسى الشاعر الصوفي الوقوف على الأطلال واستذكار الأيام الخوالي، ووصف الرحلة والوقوف على الأمكنة وما بها من حيوان أو نبات، ووصف الناقة في قوتها قبيل الرحلة، وإجهادها بعيد انتهاء الرحلة ‹‹ وامتزاج المرأة بالطبيعة الحية في تنوع مظاهرها وتقلب أحوالها، وإلحاحه الشديد على ذكر الأودية والمرابع والأماكن التي كان ورودها في الشعر القديم علامة على اغتراب مكاني أملته ظروف البيئة والمناخ، وليس هذا الاغتراب المكاني..سوى إسقاط لاغتراب آخر ذي طابع وجداني، ومن هذا الشعور الباطن بالاغتراب انبثق في الشعر التقليدي وصف الرحلة والقافلة والناقة التي ألمّ بها الأين.

ولم يجد الشعر الصوفي بأسا من الإهابة بالرحلة والاغتراب المكاني والروحي ومزج الطبيعة إن في جمالها وإن في جلالها، بوصف حرق المحبة وتلون أحوالها من

[1] –عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي، بيروت، ص132

خلال بثينة وعزة وليلى العامرية، التي لم تبلغ هذه الغاية من الرمزية، إلا لما تضمه من قوى روحية ساغ معها أن تنزل هذه المنزلة العالية في تعبير المتصوفة. ›› [1]

ومن أمثلة ذلك هذا الشعر ما قاله بن الفارض وهو يتغنى ويناجي الذات الإلهية في صور رمزية إيحائية:

هل نارُ ليلى بدتْ ليلاً بذي سَلَمٍ	*	أمْ بارقٌ لاحَ بالزَّوراءِ فالعَلَمِ
أرواحَ نعمانَ هلاَّ نسمةٌ سَحَرا	*	وماءَ وجرةَ هلاَّ نهلةٌ بفمِ
يا سائقَ الظعنِ يطوي البيدَ مُعتسفًا	*	طيَّ السِّجلِ بذات الشيح من إضَمِ
عُج بالحِمى يا رعاكَ اللهُ معتمدًا	*	خميلةَ الضالِ ذاتِ الرَّندِ والخزَمِ
ناشدتكَ الله إن جزتَ العقيقَ ضُحًى	*	فاقْرَ السّلامَ عليهِم غيرَ مُحتَشِمِ
وقلْ تركتُ صريعًا في ديارِكُمُ	*	حيًّا كميْتٍ يُعيرُ السَّقمَ للسّقَمِ
فمن فؤادي لهيبٌ ناب عن قبسٍ	*	ومن جُفوني دمعٌ فاض كالدّيَمِ
يا لائمًا لامني في حبِّهِمْ سَفهًا	*	كُفَّ الملامَ فلوْ أحببتَ لم تلُمِ
وحُرمةِ الوصلِ والوِدِّ العتيقِ وبالـ	*	عهدِ الوثيقِ وما قد كان في القِدمِ
ما حُلتُ عنهُمْ بسُلوانٍ ولا بدَلٍ	*	ليسَ التّبدّلُ و السِّلوان من شيَمي [2]

[1] – عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية ،مرجع سابق، ص178، 179

[2] – ديوان ابن الفارض، ص 123، 124

2-رمز الخمرة:

نهل شعراء التصوف من القصائد الخمرية ؛ وجعلوا من الخمرة ودلالاتها ومدلولاتها رمزا للحالات التي تعتري المتصوف، كما ‹‹ يلوحون به على طريقتهم إلى مجموعة ثابتة من المعاني الذوقية. وقد أعطى الصوفية هذا المعجم الخمري دلالات جديدة خرجت بالخمر إلى دائرة الرمز الصوفي، والصوفية يستخدمون نفس الألفاظ التي نجدها في شعر الخمر الحسية، كالندمان والحواني والدنان، إلاّ أنّهم يشيرون بهذه الألفاظ إلى معاني الحب والفناء والاتحاد ›› [1]

والقصيدة الخمرية قديمة قدم القصيدة العربية، ففي القصيدة الجاهلية نجدها في شعر الأعشى وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم وعدي بن زيد العبادي، ثم تطور هذا الفن في الحقبة الإسلامية ؛ خاصة في العصر العباسي نتيجة الاحتكاك بالثقافات الأخرى والتطور الحضاري والمادي للمجتمع، والذي حفز هذا اللون الشعري على التطور تهالك القوم من حكام ووزراء على معاقرة الخمرة، وقد برع من الشعراء في الخمريات أبو نواس.

هذا الأخير طارت شهرته في الآفاق وراجت أشعاره في وصف الخمر، وتصوير روادها ومجالسها، وألوانها وأشكالها، وأباريقها ودنانها وخوابيها وأكوابها، وسقاتها وشرّابها، وأحوالهم في سكرهم وصحوهم.. وقد احتفى الصوفية بهذا المعجم الخمري ووجدوا فيه مادة ثرّة بالدلالات والتعبيرات.

يقول أبو نواس في معرض التغنّي بالخمرة:

[1] – عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص 131

اثنِ على الخمرِ بآلائِها	*	وسمِّها أحسنَ أسمائِها
لا تجعَلِ الماءِ لها قاهراً	*	ولا تُسلِّطها على مائِها
كَرَخيَّةٌ قد عُتِّقتْ حِقْبةً	*	حتّى مضى أكثرُ أجزائِها
دارتْ فأَحيتْ غيرَ مذمومةٍ	*	نفوسَ حسراها وأنضائِها [1]

وقد جرى ذكر الخمر في قصائد الصوفية، وهم بذلك يرمزون للحب الإلهي، وأحوال المحبين ومواجدهم، يقول أبو مدين التلمساني (514هـ-594هـ) في هذا المعنى:

أدرها لنا صِرفًا ودعْ مزجها عنّا	*	فنحن أناسٌ لا نرى المزجَ مُذْ كنّا
هي الخمرُ لم تعرفْ بكرمٍ يخصّها	*	ولم يجلها راحٌ ولم تعرف الدّنّا
حضرنا فغبنا عند دوْر كؤوسِها	*	وعُدنا كأنّا لا حضرنا ولا غِبنا
وأبدتْ لنا في كلِّ شيءٍ إشارةً	*	وما احتجبتْ إلاّ بأنفُسِنا عنّا
ولم تُطقْ الأفهامُ تعبيرَ كنهِها	*	ولكنّها لاذتْ بألطافها الحُسنى
نصحتُك لا تقصُد سوى بابِ حانها	*	فمن وجدَ الأعلى فلا يطلبِ الأدنى
تجلّتْ دنوًّا واختفتْ بمظاهرٍ	*	وجلّتْ فما أغنى ودقّتْ فما أسنى
وما الكونُ إلاّ مظهرٌ لجمالِها	*	أرَتنا بهِ في كلّ شيءٍ بدا حُسنا [2]

[1] – أبو نواس، الديوان، تحق: أحمد عبد المجيد الغزالي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423هـ-2003، ص30

[2] –عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، ص359

المحاضرة الثامنة: المصطلح الصـــوفي

يعجّ معجم الصوفية باصطلاحات خاصة فريدة وكثيرة تصور أحوالهم الوجدانية، وتعبر عن المقامات والمنازل التي يسلكها المتصوفة في سبيل الوصول إلى المحبة الإلهية، ولذلك كان تعاملهم مع اللغة تعاملا خاصا، فآثروا ركوب موجة الرمز والغموض، تعمية وإلغازا على من باينهم في الطريقة، ورغبة في حفظ أسرارهم على من ليسوا من طبقتهم.

وقد وضح الإمام القشيري هذا المعنى فقال: ‹‹ اعلم أن لكل طائفة من العلماء ألفاظا يستعملونها، وقد انفردوا بها عمن سواهم، كما تواطئوا عليها لأغراض لهم فيها، من تقريب الفهم على المتخاطبين بها، أو للوقوف على معانيها بإطلاقها، وهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم، قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلّف، أو مجلوبة بضرب من التصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم [1]››

وإذا كان الصوفية مختلفين في التجربة الذوقية بحسب استعداداتهم الروحية، فهم يتفقون في الاصطلاحات ‹‹ فهناك توحد كبير بينهم عبر الأقطار والعصور في نوع

[1] – الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص21

المصطلحات المستعملة وعموم معانيها لا يختلفون إلا في مستويات تلك المصطلحات باعتبار التصوف اجتهادا فرديا متنوعا داخل وحدة عرفانية ›› [1]

وهم معروفون بسعة العلم وكثرة الحفظ، وغزارة أدبهم ؛ الذي لا يقتصر على الشعر أو النثر، إذ نلفي أدعية وابتهالات وشروحات لأعمالهم وأعمال متصوفة آخرين، ونجد اجتهادا في وضع معاجم صوفية صرفة. " وقد تناول الصوفيون في أدبهم الكثير من دقائق الحكمة والتجربة والفكر والمعاني والأخيلة، وأعمق مشاعر الإنسان، وحفل أدبهم بروائع المناجاة والحب الإلهي. ›› [2]

والصوفية استقوا مصطلحاتهم من القرآن الكريم والسنة النبوية وعلوم الشرع والفقه والتفسير؛ فألفاظ التوكل والتوبة والتقوى والتفكر والتذكر والإنابة والمحاسبة والمحبة والعبادة.. ذكرت في القرآن وفي أحاديث نبينا ﷺ ، وبذلك تتأكد للباحث الحصيف أصول التصوف الإسلامية، واعتناقه مبادئ الدين الصحيح القائمة على التوحيد وأداء العبادات ‹‹ وتلاوة القرآن وعبادة الله بالصلاة والصيام وأداء الفرائض والنوافل ودوام ذكر الله وتسبيحه والتأمل في ملكوته والتوبة إليه والتوكل عليه والخلوص له والانقياد والاستسلام الكامل بالقلب ظاهرا وباطنا حتى لا يبقى في القلب موضع لغيره. وإذن فكل ما يزعمه بعض المستشرقين وبعض الباحثين من أنه نشأ بمؤثرات خارجية من بعض النزعات الهندية أو من الفلسفة الأفلاطونية أو من الرهبنة المسيحية أو أن هذه المؤثرات عملت بقوة في نموه، كل ذلك لا أساس له ››[3]

[1] – محمد زايد، أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011، ص25

[2] –محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص 66

[3] – شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص 200

ومن أهم المصادر، التي تناولت المصطلح الصوفي بالشرح والتفسير والبيان، وأرخت لأعلام الصوفية وأقوالهم وأحوالهم ومجاهداتهم، نذكر:

1 –**اصطلاحات الصوفية: للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي**

2 – كتاب التعريفات للشريف الجرجاني

3 – التعرف لمذهب أهل التصوف لأبي بكر محمد الكلاباذي

4 – كتاب اللُّمع في التصوف لأبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي

5 – الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري

6 – كشف المحجوب لأبي الحسن علي بن عثمان الهجويري

7 – عوارف المعارف للسهروردي

8 – معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني

9 – المعجم الصوفي لسعاد الحكيم

10 – المصطلح الصوفي في الإسلام لنظلة الجبوري

وهذه بعض المصطلحات الواردة في شروحات المتصوفة وأسفارهم:

أ–**المقام:** وهو الإقامة، ومعناه أن يكون مقيما في مقام من مقامات القاصدين، مثل التوبة والورع والزهد والصبر..يقول الجنيد: لا يبلغ العبد حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد حتى يعبر الأحوال والمقامات [1]

ب – الحال: هو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب ولا اكتساب..والأحوال مواهب والمقامات مكاسب [2]

ج – الغيبة والحضور: الغيبة: أن يغيب القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق. ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب. **والحضور:** بمعنى

يكون حاضرا بالحق، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق [3]

د – السُّكر والصحو: السكر: وهو أن يغيب عن تمييز الأشياء ولا يغيب عن الأشياء.

وأما **الصحو:** فهو يعقب السكر، وهو أن يميز فيعرف المؤلم من الملذ، فيختار المؤلم من موافقة الحق ولا يشهد الألم بل يجد لذة في المؤلم [4]

هـ – الفناء والبقاء: أشار قوم إلى الفناء بسقوط الأوصاف الذميمة، والبقاء ببروز الأوصاف المحمودة..، فمن فني عن أوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة استترت عنه الصفات المحمودة..فمن فني عن جهله

[1] – ينظر: نظلة الجبوري، المصطلح الصوفي في الإسلام، ط3، دار نينوى، دمشق،1434 هـ–2013 م، ص66

[2] – ينظر: الرسالة القشيرية، ص23

[3] – نفسه، ص33، 34

[4] –ينظر: نظلة الجبوري، المصطلح الصوفي في الإسلام، ص91،92

بقي بعلمه، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته، ومن فني عن رغبته بقي بزهده، ومن فني عن أمله بقي بإرادته، وكذلك القول في جميع تصرفاته. [1]

و – المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة: المحاضرة: حضور القلب، ثم بعدها **المكاشفة**، وهي حضوره بنعت البيان، **والمشاهدة:** هي حضور الحق من غير بقاء تهمة.

وحق المشاهدة عند الجنيد وجود الحق مع فقدانك، فصاحب المحاضرة مربوط بآياته، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته، وصاحب المحاضرة يهديه عقله، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته.[2]

وما هذه المصطلحات سوى غيض من فيض مما تعج به المصادر والمعاجم القديمة من أسماء ومسميات تتصل بعالم الصوفية وتجاربهم الذوقية، وأحوالهم بين الاستتار والتجلي.

[1] – ينظر: الإمام القشيري، الرسالة القشيرية، ص31،32

[2] – نفسه، ص 38

المحاضرة التاسعة: اللغة الصوفية

يستخدم الصوفية اللغة استخداما خاصا، كيف لا وهم يعبرون عن تجربة ذوقية، ولذلك تأتي اللغة مترعة بألوان من الرموز والإيحاءات، تعج بالإبهامات والتلويحات والغموض، تتدفق بالمشاعر الفياضة معبرة عن مواجيد الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم.

‹‹ وللصوفيين من الرمزية والأدب الرمزي ما ليس لغيرهم، رمزية في المذهب وفي الأسلوب وفي المعاني وفي الأخيلة مما لا تصل إليها روائع الاستعارة والكناية والتمثيل

والتشبيب، ومما يحار فيها الفهم والعقل والوهم والخيال، ومذهبهم هو الغموض، ولهم اصطلاحات تقوم مقام اللغة ›› [1]

فاللغة التي تعارف عليها الأدباء والشعراء، وكانت سبيلهم الأمثل في البوح بالمشاعر وتجسيد المعاني والأفكار، وبناء عالم جديد من الأحلام والأخيلة.

يرى المتصوفة في اللغة العادية لغة عاجزة، وقاصرة في نقل تجاربهم وتصوير أحوالهم، ووصف ما يكابدونه من مواجيد وأشواق أو يبلغونه من مشاهدات ومقامات، ولذلك فالصوفي يجهد ويجتهد من أجل التسامي والتعالي في خلق لغة مثالية، تنقل بصدق

مشاعره وتوصل تجاربه، وعليه ‹‹ فاللغة يجب أن تشحن بحدة الرؤية وتوقد الذهن وعنفوان التجربة، وكلما استطاع الشاعر الصوفي أن يجعل تجربته هذه تفوق سلطة العادة والتداول في البناء اللغوي تمكّن من تحقيق التجاوز والخرق وأن يضع – بالتالي – قارئه

[1] – عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، ص67

أمام تجربة قرائية جديدة يصعب اختراقها إلاّ بالمران والدربة، ومع كلّ تكرار للقراءة يحصل مزيد من التواصل والاشتراك في التجربة. إنّ اللغة تمثل الهاجس الحقيقي للمبدع الصوفي، وهي عذابه الذي ينضاف إلى عذابه مع الحب والفناء، حيث اللغة وسيلة للإيجاد والمحو، أداة لتحقيق المحبة والفناء ››[1]

لا يكتفي الصوفي بالتجربة الدينية العادية، ولا يقنع بالعرف الشائع، إنما يحاول أن يغوص في باطن الأشياء، ويستجلي أسرار الحقيقة، وبالتالي ‹‹ يتجاوز حدود الإيمان إلى الدخول في تخوم الإحسان الذي يعني: " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " حديث شريف›› [2]

ويسترفد لغته من مناهل القرآن العذبة وموارد السنة المطهرة، والسيرة النبوية المطهرة ومن سير وقَصص الأنبياء والصالحين، ولذلك يتطلع الصوفي إلى لغة مقدسة مثالية، تتجاوز حدود البشر وعوالمهم الحسية النجسة، كما أنه يعاين تجربة تفوق خيال البشر ومداركهم، ومن هنا فهو لا يكتفي بلغة عادية مألوفة، بل ينحت من وحي تجربته ألفاظه الخاصة ولغته الفريدة ‹‹ ومن هنا ابتكر الصوفية معجمهم اللغوي–الفني والذي سمي بالاصطلاح الصوفي، فالإشارة أو المصطلح الصوفي إنما نشأ من باطن التجربة الصوفية لا من خارجها. وأهل التصوف هم الذين بادروا–عبر عملية معرفية تراكمية – إلى صناعة هذا المعجم وبلورة مصطلحه وشرحه. ففي الخطاب الصوفي المتميز – باعتماده الرمز والإشارة والمعنى المكثف – تتردّد مفردات كثيرة مع الاستعمال المتواصل والمتواتر تحوّلت إلى مفردات مميّزة مشكلة معجما صوفيا ›› [3]

[1] – سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، ص 227

[2] – محمد زايد، أدبية النص الصوفي، ص 125

[3] – سفيان زدادقة، مرجع سابق، ص 228

فالمتصوفة شعراء وكتابا يتعاملون مع اللغة تعاملا خاصا، ينجذبون إليها مع كل جذبة، ويسكنون إليها مع كل حال ومقام، يبثونها لواعجهم بالحروف والكلمات يرسمون مشاهد الوجد والحنين والفناء، يصفون ويصورون ويبكون ويطربون ويحلقون في عوالمهم، من حال إلى حال ومن موجدة إلى أخرى، بل إن قريقا منهم يرون اللغة قاصرة وجامدة عن البيان والإيضاح والكشف، ومن ثم يلجئون إلى الرموز والغموض للتعبير عن أحوالهم الخاصة.

المحاضرة العاشرة: أعلام التصوف

كثيرة هي الأسماء التي وصلتنا، وقد ملأ ذكرها الآفاق ؛ علما وفقها وعبادة وسلوكا، وتركوا مؤلفات تبسط عقيدتهم وتوضح مفاهيمهم في التصوف وما شغلوا به أنفسهم من ضروب العبادة والمراقبة والمجاهدة، كتبا في النظم و النثر. ومن هؤلاء الأعلام نذكر:

1-محيي الدّين بن عربي: ويعرف بالشيخ الأكبر، وهو أبو بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، ويعرف بابن عربي أو ابن العربي، من مواليد مرسية سنة ستين وخمسمائة ونشأ بها [1] تنقل بين مدن الأندلس وأخذ على علمائها وصلحائها علوم الفقه والشريعة والحديث النبوي، كما تأثر بزهاد ومتصوفة كثيرين " ولزم نونة – فاطمة بنت ابن المثنى – الصوفية سنتين تابعا ومريدا، حتى إذا أُشربت روحه كثيرا من الرياضات الصوفية خرج من اشبيلية يتجول في الأرض، وهو في نحو الثلاثين من عمره." [2]

لم يستقر المقام بالكاتب في أيّ مكان، إذ قام بسياحات متعددة مشرقا ومغربا، بدأها بمدينة فاس التي استقر بها قرابة العام، رحل بعدها إلى مدينة بجاية حاضنة العلم والمعرفة بالمغرب الأوسط ؛ وهناك التقى بأبي مدين الغوث التلمساني، فلازمه وأخذ عنه طريقته الصوفية، ليرحل بعدها إلى تونس ومنها يتوجه صوب الحجاز لأداء فريضة

[1] – الشيخ محيي الدين بن عربي، التجليات الإلهية، ضبط وتصحيح: محمد عبد الكريم النمري، ط1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، 1423 هـ، 2002م، ص4

[2] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات – الأندلس– دار المعارف، القاهرة، ص364

الحج، ثم إلى بغداد فبلاد الشام فالقاهرة، ثم يذهب إلى بلاد الأناضول، بعدها ينزل بحلب، وفي سنة 620 هـ يختار دمشق دار إقامة حتى وفاته سنة 638 هـ [1]

عرف ابن عربي بسعة اطلاعه، وتبحرّه في علوم العقل والنقل، واختص في علوم التصوف الذي أجاد فيه أيّما إجادة ؛ فبذّ أقرانه وأعلام زمانه، وشغل فكر الأجيال في فكره وعقيدته، وآرائه حول العقيدة والعبادات. فهو صاحب مدرسة فكرية واتجاه في التصوف فريد، ألّف كتبا ورسائل كثيرة، ذكر عبد الرحمن جامي صاحب كتاب " نفحات الأنس" أنها تربو على الخمسمائة مؤلَف، في حين أحصى له الشعراني في كتابه " اليواقيت والجواهر" أربعمائة كتاب "ومهما يكن من التضارب بين الكتّاب في عدد مؤلفات ابن عربي وأحجامها، فليس هناك من شك في أنّ هذا الرجل كان من أغزر كتّاب المسلمين علما وأوسعهم أفقا وأدناهم إلى العبقرية والتجديد في ميدان دخل فيه كثيرون غيره، ولم يخرجوا منه بمثل ما خرج، ولا بلغوا فيه الشأو الذي بلغ" [2]

أما أهم مؤلفاته على الإطلاق فهي: كتاب (الفتوحات المكية)، و(التجليات الإلهية)،(فصوص الحكم)،(مواقع النجوم)،(الدوائر الإحاطية في مضاهاة الإنسان للخالق)، (الدرة الفاخرة)، (مشاهد الأسرار)، (رسالة الأنوار)، (الحكمة الإلهامية) وديوانه الشعري (ترجمان الأشواق).. إلى جانب مصنفات كثيرة مطبوعة وأخرى مخطوطة موزعة بين المكتبات والزوايا.

ولديوانه " ترجمان الأشواق " قصة، فحين قصد بيت الله الحرام من أجل أداء فريضة الحج، تعرّف بالشيخ مكين الدين أبي شجاع بن رستم الأصفهاني إمام مقام

[1] – ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات – الأندلس، ص364.

[2] –محيي الدين بن عربي، فصوص الحكم، تعليق: أبو العلا عفيفي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ، 2002م، ص 5،6

إبراهيم بالمسجد الحرام، " وحضر دروسه وسمع عليه الجامع الصحيح في الأحاديث النبوية للترمذي، وتوثقت بينهما العلاقة، وكان لهذا الشيخ فتاة جميلة اسمها نظام، فشغف بها ابن عربي حين رآها ونظم فيها ديوانه " ترجمان الأشواق" متخذا منها ومن غزله رمزا لحبه الرباني ومواجده الصوفية " [1]

وابن عربي اختلف الدارسون في فكره ومذهبه قديما وحديثا، فهو صاحب نظرية وحدة الوجود، نظرية شكّكت في عقيدة الرجل، إلى حدّ ذهب فيه بعض العلماء إلى تكفيره واتهامه بالزندقة والمروق عن الدين، وهناك طبعا من عارض هذه الطروحات وانتصر للرجل وفكره، خاصة بين جموع تلامذته ومريديه " ومن أبرز تلامذة ابن العربي والمنتصرين لفكره صدر الدين القونوي (توفي سنة 672 هـ-1274 م) هذا الذي تخرّج شيخا صوفيا على يد الشيخ الأكبر، وكان شافعي المذهب، وإن عدّه البعض من أعلام الشيعة. خاصة وأنّ هناك من يرجع فضل انتشار تصوف ابن العربي وفلسفته في الوسط الشيعي عموما وفي بلاد فارس على وجه الخصوص، إلى تلميذه وربيبه صدر الدين القونوي، الذي صُنف في أرقى درجات التصوف حتى لُقب ب" قطب الوقت ".. ومن أهم أعماله شرحه لفصوص الحكم "[2]

وإن عاب غير واحد من الفقهاء مذهبه وطريقته، فهناك من فقهاء الإسلام من عدّه من نوابغ الأمة – وإن بدا عليه شطح المتصوفة-يقول الذهبي في حقّه: " إنّ له توسّعا

[1] -شوقي ضيف، مرجع سابق، ص 364

[2] -ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، منشورات الإختلاف، الجزائر، 1431 هـ، 2010 م، ص30

في الكلام، وذكاء، وقوّة خاطر، وحافظة، وتدقيقا في التصوف، وتواليف جمّة في العرفان، لولا شطحه في كلامه وشعره، ولعلّ ذلك وقع منه حال سكره وغيبته." [1]

ومن نظمه:

حقيقتي همتُ بها	*	وما رآها بصَري
ولو رآها لَغــدا	*	قتيلَ ذاكَ الحَورِ
فعندما أبصرتُها	*	صرتُ بحكمِ النّظرِ
فبتُّ مسحورًا بها	*	أهيمُ حتّى السَّحَر
يا حَذري من حَذري	*	لو كان يُغني حذَري
واللهِ ما هيَّمني	*	جمالُ ذاكَ الخَفرِ
في حُسنها من ظبيَةٍ	*	ترعى بذاتِ الخمرِ
إذا رَنتْ أو عطفت	*	تَسبي عقولَ البشرِ
كأنّما أنفاسُها	*	أعرافُ مِسكٍ عَطرِ
كأنّها شمسُ الضّحى	*	في النّورِ أو كالقمرِ
يا قمرا تحت دجًى	*	خذي فؤادي وذَري
عيني لكي أبصِركم	*	إذ كانَ حظّي نظَري [2]

اتسمت أعمال ابن عربي بالغنى والثراء المعرفي والذوقي، وفي شعره تتجلى الرؤيا والتجربة الصوفية، بلغة مترعة بالرموز والإيحاءت، تنسج خيوط الحالة في معراج التواصل مع المطلق عن طريق التجربة المتلبسة بجناح الخيال المحلق خلف العوالم

[1] – أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحق: إحسان عباس،ج2، دار صادر، بيروت، 1388 هـ، 1968 م، ص 165

[2] –المقّري التلمساني، مرجع سابق، ج 2، ص167

الظاهرة إلى عوالم الكشف والتجلي الباطني. ففي قصيدة تناوحت الأرواح، يقول في هذا المعنى:

ألا يا حماماتِ الأراكَةِ والبانِ	*	ترفّقن لا تُضعفن بالشَجوِ أشجاني
ترفّقنَ لا تُظهرنَّ بالنوح والبكا	*	خفيَّ صباباتي ومكنونَ أحزاني
تناوحت الأرواحُ في غيضة الغضا	*	فمالت بأفنانٍ عليّ فأفْناني
تطوفُ بقلبي ساعةً بعد ساعةٍ	*	لِوجدٍ وتبريحٍ وتلثمُ أركاني
كما طاف خيرُ الرُّسلِ بالكعبةِ التي	*	يقول دليل العقلِ فيها بنقصان
لقد صار قلبي قابلاً كلّ صُورةٍ	*	فمرعًى لغزلانٍ ودَيرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ	*	وألواحُ توراةٍ ومُصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجّهَت	*	ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني [1]

تحفل القصيدة باصطلاحات الوجد والحب والصبابة والشوق، وفيها يصور الشاعر حال العاشق المتيم، من ينشد الوصال، ويرسل الزفرات الحرّى، ليدرك مقام الفناء والتجلي.

وإن كان الحب ميل القلب إلى المحبوب، فإن في الحب مقامات لا يحصّلها إلا من ذاق، وهام شوقا واشتياقا. قال أحد العارفين: " طوبى لمن شرب كأسا من محبته، وذاق نعيما من مناجاة الخيال وقربه، بما وجد من اللّذات بحبه، فامتلأ قلبه حبّا، وطار بالله

[1] –محيي الدين بن عربي، ترجمان الأشواق، ط3، دار صادر، بيروت، 1424 هـ، 2003 م، ص 40، 41، 42،43، 44

طربا، وهام إليه اشتياقا، فيا له من وامق أسف، بربه كلف ونف، ليس له سكن غيره، ولا مألوف سواه " [1]

وبارتقائه هذه المنازل والمقامات يجهد نفسه للوصول إلى مرتبة الحب الإلهي، وهو مقام جعله المتصوفة عنوان الرضى والقبول واليقين في قلوب أصفيائه.

2-عمر ابن الفارض: هو أبو حفص عمر بن أبي الحسن الحموي الأصل، ووالده كمال الدين الفارض السعدي، قاضيا وفقيها، ولد الشاعر في القاهرة سنة 576 هـ، اهتم به والده فوجهّه نحو العلوم الشرعية، والعبادة والتقوى، فشبّ على الصلاح والنسك [2]

كان كثير السياحة والعبادة والمجاهدة في وادي المقطّم، حتى عرف بين الناس بورعه ونسكه، ارتحل في مرحلة الشباب قاصدا بيت الله الحرام، مكث بها مدة خمسة عشر عاما، عابدا خاشعا لله متضرعا، هائما بين فجاجها وشعابها وأوديتها " وهو بين الناس ببدنه، وقلبه معلق بالرفيق الأعلى، وستور تحجبه عنه، وهو يتمنى لو يبصر بعض جماله حتى لو بذل في ذلك روحه لمرضاته، بل يتمنى لو استطاع أن يخلص من نفسه وألّا يكون له شغل إلاّ به، بل يتمنى لو انمحى كل حسه ولم يبق له من شعور بوجود حوله سوى وجود ربّه..ومع الإكثار من الصلاة والصيام والرياضات والمجاهدات، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة، وحتى رفعت الحجب المسدلة بينه وبين الذات العلية، فإذا هو في مقام الشهود، وإذا هو يتلقى العلم اللدني من مشكاته. " [3]

---

[1]- علي الخطيب، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، ص 331،332 (نقلا عن اللمع لأبي نصر السراج الطوسي-87

[2] - ينظر: شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص 205

[3]- شوقي ضيف، مرجع سابق، ص 206

ويعود إلى القاهرة بعد طول غياب، وقد ألح عليه شيخه" البقّال" بالرجوع لما أحسّ بدنوّ الأجل، فيحضر جنازته ويُوارى الثرى بمغارة بالمقطّم، ويظل الشاعر يأسى لفراق وارداته الروحية، ويشجى لتلك الربوع والبطاح، ويتمنى لو يعود إلى أرض الحجاز التي شهدت معراجه القدسي، يقول الشاعر:

يا سميري روّحْ بمكّةَ روحي	*	شاديًا إن رغبتَ في إسعادي
كان فيها أنسي ومعراجَ قُدسي	*	ومُقامي المَقامُ والفتحُ بادِ
آهٍ لو يسمحُ الزّمـــــانُ بعَوْدٍ	*	فعَسى أن تعودَ لي أعيادِي [1]

أصبح الشاعر مضرب المثل في التقوى والتبتّل والتقشف، وتسامع الملوك والسادة أخبار تصوفه، فحاولوا جهدهم التقرّب منه ومنحه هباتهم، لكنه آثر الهروب والانزواء عن الناس. وراح يتغنى بمحبوبه في الغيبة والحضور، في الحل والارتحال، لقد هام وجدا وشوقا للقاء الله ؛ فهو كرابعة العدوية في حنينه وصبابته، دائم الشرود، كثير العبادة، ألزم نفسه ما لا يلزم من مجاهدات ورياضات، ونأى بنفسه عن الرياء والظهور، ولم يعدّ نفسه في عقد الأولياء الصالحين الذين كُشف عنهم الحُجب، وهذا ما جعل بعض الدارسين يعدّه نموذجا فريدا في الحبّ الإلهي " ولعلّ صوفيا عربيا لم يُفتح عليه من أبواب الشعر في مجاهداته الروحية ومحبّته لربّه بمثل ما فُتح به على ابن الفارض حتى سُمّي بحقّ " سلطان العاشقين" للذات العلية، وكان يتلقّى هذا الفيض غالبا حين ينقطع عنه فيض الشّهود للحضرة الإلهية، فيتغنى بحبّه مصوّرا وجده بربّه وهيامه بجماله الذي يفيضه على الكون من حوله. ونحس كأنّ نفسه الشعري لا يريد أن يتوقّف إزاء ما يصف من نشوته

[1]– ابن الفارض، الديوان، شرح: هيثم هلال،ط3، دار المعرفة، بيروت، 1429 هـ، 2008 م، ص83، 84

بغرامه وعشقه وأمله في شهود ربّه." [1] توفي الشاعر سنة 632 هـ ودفن في سفح جبل المقطّم بالقاهرة بالقرافة المعروفة بقرافة ابن الفارض [2]

للشاعر ديوان شعر حوى خلاصة تجاربه الوجدية، وصوّر أحواله ومقاماته، وما عاناه من هيام وحرمان، وما اصطلى به من نار الحب والصبابة تجاه الذات الإلهية " ولقد أحال ابن الفارض تصوفه إلى شعر باعتبار الشعر قالبا للصياغة وشكلا من أشكال التعبير، كما أحال شعره إلى تصوف باعتبار التصوف موقفا من الوجود ومحاولة لتأسيس الموجود " [3]

انشغل ابن الفارض بالعبادة، فلا يكاد يفرغ من الفرائض حتى يلج باب النوافل، فهذا ديدنه وسلوكه وسبيله الذي ارتضاه لنفسه مذ كان فتى صغيرا، وهو بذلك يتمثل الحديث القُدسي الذي يقول فيه سيّد المرسلين عن ربّه تعالى علوا كبيرا: ".. وما تقرّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقرّبُ إليَّ بالنوافلِ حتّى أحبّهُ، فإذا أحببتهُ، كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرهُ الذي يبصرُ به ويده التي يبطشُ بها، ورجلهُ التي يمشي بها، وإن سألني لَأعطينّهُ، ولئن استعاذني لَأُعيذنّهُ، وما ترددّتُ عن شيءٍ أنا فاعلهُ ترددُّي عن نفس عبدي المؤمنِ، يكره الموتَ، وأنا أكرهُ مَساءته " [4]

يصور الشاعر هذا الحبّ الذي تملّك روحه وجوارحه، فهو دائم الصبابة والوله، طريح جوى، قريح الجفون، عليل الفؤاد، كليل كئيب، أنفاسه تتقطّع زفرات، يقول:

---

[1] – شوقي ضيف، مرجع سابق، ص209

[2] – ينظر: الديوان، ص 7

[3] – عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض – دراسة في الفن الشعري الصوفي – ط1، دار الأندلس، بيروت، 1402 هـ، 1982 م، ص 103

[4] – الأحاديث القدسية الصحيحة (مجموعة من الكتب الستة دار الكتاب الحديث، الجزائر، 1431 هـ، 2010م، ص 64

بروحي من أتلفتْ روحي بحبّها	*	فخان حِمامي قبل يومِ حَمامي
وفيها حلالي بعد نُسكي تهتّكي	*	وخلعُ عِذاري وارتكابُ آثامي
ونومي مفقودٌ وصبحي لك البقا	*	وسُهدِيَ موجودٌ وشوقي نامِ
طريحُ جوى حُبٍّ جريحُ جوانحٍ	*	قريحُ جفونٍ بالدوام دوامي
صحيحٌ عليلٌ فاطلبوني من الصّبا	*	ففيها كما شاء النّحولُ مُقامي
ولم يُبق منّي الحبَّ غيرَ كآبةٍ	*	وحزنٍ وتبريحٍ وفَرط سَقامِ
وفي كلِّ عُضوٍ فيَّ كلَّ صبابةٍ	*	إليها وشوقٍ جاذبٍ بزِمامي[1]

الشاعر يمتح من معين الغزليين؛ لغتهم الشفيفة، مواجدهم الحرّى، زفراتهم المشوقة، لوعتهم من نار الهجران، إشفاقهم من الجوى، حزنهم المطبق على أنفاسهم وهم يعاينون رحيل المحبوب إلى بلاد ومرابع بعيدة، فكأنما هو يتمثّل قول مجنون ليلى إذ يقول:

بحُبّكِ يا ليلى ابتليتُ وإنّني	*	حليفُ الأسى باكي الجفونِ فقيدُ
لقد طال ليلي واستهلّتْ مدامعي	*	وفاضتْ جفوني والغرامُ يزيدُ
أكابدُ أحزاني وناري وحُرقتي	*	ووصلُكِ يا ليلى ـــ أراهُ ـــ بعيدُ
لقد عيلَ صبري من غرامي ووحدتي	*	وعُظمُ اشتياقي هائمٌ ووحيدُ[2]

[1] – ديوان ابن الفارض، ص 125، 126

[2] – ديوان مجنون ليلى، شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، 1431 هـ،2010 م، ص 60

يحاول الشاعر أن يتحدّ مع محبوبه، فيشفّ قلبه وجدا، وتمحى هواجسه ويغيب إحساسه وحسّه، فكل ما في الوجود يدلّ عليه، ويلهج باسمه، والكون بجماله ينبئ عن جلاله، وتناغم الطبيعة ومشاهدها تدلّ على عظمة صنعه، فهو حاضر باد في نغمة العود الرخيم، وفي قطعان الغزلان وهي تسرح صباحا ومساء، وفي الخمائل والأزهار تسحر الوجود بجمالها، وفي النسيم يعبق بأريجه أجواء الطبيعة، يقول الشاعر:

تراهُ إن غاب عنّي كلَّ جارحةٍ	*	في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بهجِ
في نغمةِ العودِ والنّايِ الرّخيمِ إذا	*	تألّفا بين ألحانٍ من الهزجِ
وفي مسارح غزلانِ الخمائلِ في	*	بُرْدِ الأصائلِ والإصباح في البلجِ
وفي مساقطِ أنداءِ الغمامِ على	*	بساطِ نوْرٍ من الأزهارِ مُنتسِجِ
وفي مساحبِ أذيالِ النسيمِ إذا	*	أهدى إليَّ سُحيرًا أطيبَ الأرجِ [1]

إنّ هذا الاتحاد والتوحد لا يدلّ بأية حال من الأحوال عن عقيدة وحدة الوجود التي صدح بها ابن عربي، فابن الفارض كان يصدر في تصوفه عن إيمان صادق وعقيدة راسخة في محبّة الله تعالى، والإيمان بعقيدة التوحيد، والحبّ الإلهي الذي شغل عالم الشاعر " هو حب يستخدم لتصوير أحواله الصوفية فيه نفس اللغة ونفس المعاني ونفس الأساليب التي استخدمها أصحاب العشق الإنساني مع تحليقات وانطلاقات إلى آفاق لا تستطيع أجنحتهم الوصول إلى سماواتها، لسبب بسيط هو أنّ الوجد الذي أشعله الحب الإلهي في قلبه لا يمكن إطفاء جذوته، ولأن الكلمات التي يستخدمها لا تراد لذاتها، وإنما

[1] – ديوان ابن الفارض، ص 77

تراد لتصوير حالات هذا الحب، وهي لذلك أكثر إيحاء وأوسع نداء من كلمات الحب الإنساني " [1]

وللشاعر قصيدة مطولة تقع في سبعمائة وواحد وستين بيتا، تسمى بالتائية الكبرى، وتعرف بنظم السلوك، وهي على وزن البحر الطويل، وهي قصيدة تلخص تجاربه الروحية، وتتجلى فيها أشواق ولوعة المحبين، بلغة مشبعة بالتلويحات والرموز والإيحاءات.

3-أبو مدين التلمساني: من كبار متصوفة الإسلام، عاش في القرن السادس الهجري، في عهد الموحدين، إذ قامت دولتهم على أنقاض دولة المرابطين، عرف بالزهد والورع والعلم اللدني، من مواليد إشبيلية سنة 509 هـ، ذكره غير واحد من العلماء وأثنى على علمه وتصوفه ؛ من بينهم الغبريني الذي قال فيه " الشيخ الفقيه المحقق، الواصل القطب، شيخ مشائخ الإسلام في عصره، إمام العبّاد والزهاد وخاصة الخلصاء، من فضلاء العباد، سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي، من ناحية إشبيلية،..فتح الله عليه بمواهب قلبية، وأسرار ربانية، استفادها بالتوجه والعمل، وارتقى إلى غاية ما يؤمل. [2]

نشأ أبو مدين شعيب يتيما في أسرة فقيرة، يرعى الأغنام لإخوته، فكانت نفسه تتوق للعلم والصلاة، حكى ذلك عن نفسه فقال: " كنت بالأندلس يتيما فجعلني إخوتي راعيا لهم ولمواشيهم فإذا رأيت من يصلي أو من يقرأ أعجبني ودنوت منه، وأجد في نفسي غمّا لأنني لا أحفظ شيئا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي ؟ فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلمّ القراءة والصلاة، ففررت فلحقني أخي وبيده حربة، فقال لي:" والله لئن لم ترجع لَأقتلنك!" فرجعت وأقمت قليلا، ثمّ قويت عزيمتي على الفرار، فأسريتُ ليلا، وأخذت في

[1] – شوقي ضيف، مرجع سابق، ص 218

[2] – أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحق: عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979، ص 22

طريق آخر، فأدركني أخي بعد طول الفجر فسلّ سيفه عليّ، وقال لي: " والله لَأقتلنّك وأستريح منك !" فعاني بسيفه ليضربني، فتلقيته بعود كان بيدي فانكسر سيفه وتطاير قطعا، فلما رأى ذلك، قال لي: " يا أخي اذهب حيث شئت " فسرت قاصدا نحو المغرب"[1]

وفي المغرب قصد مدينة طنجة، ثم اتجه صوب مدينة سبتة، فعمل أجيرا لبعض الصيادين، ومنها انتقل إلى مرّاكش، فمدينة فاس حاضرة العلم ومنارة لطلبة العلم الوافدين عليها من الأندلس وغيرها من أقاليم المغرب وإفريقية، وقد اشتهرت من عهد الأدارسة بجامع " القرويين " فلازم الجامع يتنقل بين حلقاته، يأخذ عن شيوخه، إلى أن استقر به المقام في حلقة الشيخ ابن حرزهم [2] فأخذ عليه علوم الدين والشريعة والحديث، وقرأ عليه كتاب الإحياء لأبي حامد الغزالي، تعلق بالشيخ أبو يعزى وأخذ عنه طريقته في التصوف، وكان يقول فيه:" طالعت أخبار الأولياء من عهد أويس القرني إلى زماننا، فما رأيت مثل الشيخ أبي يعزى " [3]

ومن فاس اتجه في رحلة إيمانية صوب بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وفي تلك الزيارة التقى بالإمام عبد القادر الجيلاني " وأثناء هذا الاجتماع المبارك تلقى أبو مدين الخرقة الصوفية، ولبسها من يد الإمام الجيلاني تلقينا ومبايعة، كما لازمه في الحرم الشريف، وسمع منه الكثير من رواياته في علم الحديث، وأودعه بخاصة أسراره، وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعدّه أفضل مشايخه الكبار " [4]

---

[1] – محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، شركة دار الأمة، برج الكيفان (الجزائر، 2011، ص 17

[2]– ينظر: محمد الطاهر علاوي، مرجع سابق، ص 18، 19

[3] – أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية، ص 23

[4] – محمد الطاهر علاوي، نفس المرجع، ص23

رجع بعد ذلك إلى بلاد المغرب واستقر في مدينة بجاية، حاضنة العلم والثقافة في ذلك العصر " وكانت بجاية في ذلك العهد تنعم بالاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي،والازدهار التجاري، والتقدم العمراني، كما حظيت مدارسها بنخبة من العلماء ورجال الدين الذين توافدوا عليها ودرسوا فيها شتى العلوم." [1]

أقبل عليه الناس وأقبلوا على علومه، وكان يدرس بزاوية الفقيه أبي زكريا الزواوي، وقد عرف الناس له فضله وعلو كعبه في الدين والتصوف، لذلك حرصت العائلات البجاوية على إرسال أبنائها لتتلقى على يديه هذه المعارف. قال عمر فرّوخ: " كان أبو مدين من المتصوّفة الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة، ومن حفّاظ الحديث ومن المعجبين بكتاب

" إحياء علوم الدين " للغزالي. وكان فقيها يفتي على مذهب مالك " [2]

توفي بمدينة تلمسان سنة 594 هـ، فقد استدعاه سلطان الموحدين يعقوب المنصور إلى مراكش، يقول صاحب الدراية في هذا الشأن: " ولما اشتهر أمره ببجاية سُعي به عند خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش، فأمر بطلوعه إلى مراكش وكتب لوالي بجاية في ذلك وأمر أن يحمله خير محمل، فلما وصل إليه الأمر، اجتمع عليه أكابر أصحابه وعزّ عليهم فراقه وتألموا من حاله وانفوا عليه، فقال رضي الله عنه لا عليكم، شعيب شيخ كبير ضعيف لا قدرة له على المشي، منيته قدرت بغير هذه البلدة ولا بدّ من الوصول إلى محل منيته... وارتحل رضي الله عنه إلى أن وصل تلمسان ونزل بها بالموضع المسمّى بالعبّاد وهنالك قال لأصحابه رضي الله عنه، لا بأس بالنوم بهذا المكان، فوافته هناك منيّته،

[1]– محمد الطاهر علاوي، مرجع سابق، 23

[2]– عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس – عصر المرابطين والموحدين – ج5، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1985، ص 519

وشرّفت تلك البقاع تربته، وهذه من جملة كراماته..وقبره هناك معمر مشهود، وحوض مورود، والدعاء عنده مستجاب. " [1]

ذكره المقّري التلمساني في كتابه " نفح الطيب " وذكر له هذه الدرر الحكمية:

ـ من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتُلي فيها بالذل، ومن لم يجد من قلبه زاجرا فهو خراب.

ـ من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه.

ـ من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق [2]

وله شعر كثير، ومما قاله في التصوف:

بكت السحابُ فأضحكتْ لبكائها	*	زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقد أقبلتْ شمسُ النهارِ بحلّةٍ	*	خضرا وفي أسرارِها أسرارُ
أتى الربيعُ بخيلِهِ وجنودِهِ	*	فتمتّعت في حسنِهِ الأبصارُ
والورد نادى بالورودِ إلى الجنى	*	فتسابق الأطيارُ والأشجارُ
لا تحسبوا الزمرَ الحرام مرادنا	*	مزمارنا التّسبيحُ والأذكارُ
وشرابنا من لُطفهِ وغناؤنا	*	نعم الحبيبُ الواحد القهّارُ
فتألّفوا وتطيّبوا واستغنموا	*	قبل المماتِ فدهرُكم غدّارُ
والله أرحمُ بالفقيرِ إذا أتى	*	من والديه فإنّه غفّارُ
ثمّ الصلاةُ على الشفيعِ المصطفى	*	ما رنّمتْ بلغاتها الأطيارُ [3]

[1]– أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية، ص28

[2]– أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج7، ص 143

[3] –المقّري التلمساني، نفح الطيب، ج7، ص 143، 144

–أبو مدين شعيب ووقفه في القدس: تذهب مصادر عديدة إلى أنّ أبا مدين الغوث التلمساني شارك في الحروب الصليبية، وخاصة في موقعة حطين الفاصلة رفقة أعداد غفيرة من المجاهدين المغاربة (بلاد المغرب الإسلامي) والأندلسيين، ويذكر أيضا أنه فقد ذراعه اليمنى في معركة الدفاع عن الأقصى المبارك [1]

واعترافا بالفضل، وإقرارا بالجميل، اقتطع لهم صلاح الدين الأيوبي جزء من أرض قريبة من الأقصى، وأنّ أبا مدين وقف منطقتين كانتا تحت ملكه وتصرفه في القدس لصالح المغاربة المقيمين فيها للانتفاع والسكن والزراعة، وأن الحد الشرقي لإحدى هاتين المنطقتين هو حائط البراق [2] ويطلق عليه اليهود حائط المبكى، استولوا عليه وصار مكان عبادة لهم.

أما حارة المغاربة، فقد هجّر اليهود أهلها وشرّدوهم عقب نكبة 1948، وأزالوها وحلّت محلّها حارة اليهود (فكّ الله أسر القدس وأهلها)

ومما قاله:

تذللتُ في البلدان حين سبيتني	*	وبتّ بأوجاع الهوى أتقلّبُ
فلو كان لي قلبانِ عشتُ بواحدٍ	*	وأترك قلبا في الهوى يتعذّبُ
ولكن لي قلبا تملّكهُ الهــوى	*	فلا العيشُ يهنا لي ولا الموت أقربُ
كعصفورةٍ في كفّ طفلٍ يضمّها	*	تذوق سياق الموت والطفل يلعبُ

[1]– ينظر: محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، ص66

[2]– ينظر: نفس المرجع، ص 66، 67

فلا الطفلُ ذو عقلٍ يحنّ لما بها	*	ولا الطيرُ ذو ريشٍ يطير فيذهبُ
تسمّيتُ بالمجنون من ألم الهوى	*	وصارت بي الأمثالُ في الحيّ تُضربُ
فيا معشرَ العشاقِ موتوا صبابةٍ	*	كما ماتَ بالهجرانِ قيس معذَّب

4- الأمير عبد القادر الجزائري: ينتمي الأمير إلى عائلة عريقة، شريفة النسب، عظيمة المحتد ؛ فهو سليل الدوحة النبوية الوارفة، وفرع من شجرتها المباركة اليانعة " فهو السيد الجليل العارف النبيل، الناسك العالم العامل، الزاهد المتورع، السيد الحاج عبد القادر بن أحمد المختار...بن عبد الله بن يحي الزاهد بن الإمام محمد بن الإمام داوود بن الإمام عبد الله المحض بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب " [1]

واشتهرت عائلته بالدين والورع، والعلم والجهاد، فقد كان أجداده من أصحاب الزوايا والطرق، كما حظوا بمكانة متميزة بين الجزائريين.

المولد والنشأة: ولد الأمير عبد القادر بقرية القيطنة التابعة لمنطقة معسكر بإيالة وهران،وكان مولده يوم 23 رجب سنة 1222 هـ، 1807م، لقي الرعاية والاهتمام من طرف أسرته وخاصة والده " محيي الدين "

حفظ القرآن الكريم، وأخذ مبادئ اللغة العربية والشعر، ودرس علوم الفقه والشريعة على يد علماء وهران، وظهرت مخايل النجابة والبطولة عليه منذ نعومة أظفاره.

[1]- الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير (سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849 تحق: محمد الصغير بناني، محمد سماتي، محمد الصالح ألجون، ط4، شركة دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، 2004، ص 46

الأمير والاستعمار:

لما أغارت فرنسا بجيوشها الجرارة، وأساطيلها الجبارة على موانئ الجزائر وأراضيها، وبدأت حملتها العسكرية، مستهدفة الاستحواذ على البلاد، والسيطرة على مقدراتها، ووضع يديها على خيرات بلادنا.

كان الأمير آنذاك شابا يافعا في ريعان العمر، ممتلئا قوة وفتوّة، به من مخايل النجابة، وأمارات البطولة والفروسية والشهامة، ما أهله فيما بعد إلى قيادة شعبه لحرب الفرنسيين، وصدّ نواياهم التوسعية، لمدّة سنوات عديدة.

ولما استسلم حاكم وهران " حسين باي " للفرنسيين، ولم يبد أيّ مقاومة، لجأ أعيان المنطقة الغربية إلى السيد محيي الدين، وطلبوا منه أن يكون أميرا عليهم، ويقوم بشؤونهم، لكن والد الأمير اعتذر إليهم، لكبر سنه، واقترح عليهم ابنه " عبد القادر " فهو شاب تقيّ ورع، فارس همام، تجتمع فيه شروط الإمارة، فقبل الناس اقتراحه وبايعوه عند شجرة الدردارة بسهل غريس ".. فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم وتداعى صغيرهم وكبيرهم وخيّموا بوادي فروحة من غريس عند شجرة الدردارة وهي شجرة عظيمة كانوا يجتمعون إليها للشورى بينهم وجاء سيدي الجد في بنيه وأقاربه وذويه، ولما تلاحق الناس الذين يعتد بحضورهم للبيعة وجلس سيدي الوالد تحت الشجرة قام والده فبايعه على السمع والطاعة ودعا ثم لقبه ناصر الدين " [1] ولذلك توجّهت همته منذ البداية إلى مقاومة الإحتلال، ومواجهة الفرنسيين في العديد من المعارك.

[1]– محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر والجزائر، ج1، المطبعة التجارية، غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903، ص 96، 97

أظهر الأمير حنكة سياسية، وشجاعة وبطولة في الميدان، واستطاع التغلب على جيوش فرنسا في عديد المعارك، محققا انتصارات باهرة أقرت بها فرنسا نفسها، من أشهرها: معركة خنق النطاح، المقطع والتافنة..

وبعد معارك متواصلة طيلة سبعة عشر عاما استسلم الأمير للفرنسيين، نتيجة عوامل داخلية وخارجية، وكان ذلك في 23 ديسمبر 1847م

نفي الأمير إلى المشرق، اتجه في البداية صوب بروسة بتركيا، ثمّ إلى دمشق التي استقر بها ودفن فيها، وفي بلاد الشام حدثت مجازر بين النصارى والمسلمين في سنة 1860، فتصدى لها وحقن الدماء، وأطفأ نار الفتنة المتأججة بمعية الجزائريين الذين هاجروا معه.

انتقل الأمير إلى جوار ربه سنة 1883م ودفن في الصالحية، وبعد استقلال الجزائر أحضرت الدولة رفاته، ودفن بمقبرة العالية.

أثاره: المقراض الحاد، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، ديوان شعر حقّق من طرف ممدوح حقّي سنة 1960، ثمّ حقّق من طرف زكريا صيام (ديوان المطبوعات الجامعية)

الأمير المتصوّف: أخذ الأمير عن والده علوم الدين والتصوّف، وكان يتبع الطريقة القادرية، ولما رحل فيما بعد إلى المشرق العربي، أخذ طرائق صوفية عديدة، وكان يحرص على العبادات والمجاهدات الروحية، والالتزام بنصوص الشريعة ظاهرا وباطنا.

والتصوف كما هو معلوم سلوك يقوم على مجاهدة النفس وحملها على المكابدة لبلوغ المشاهدة " هو سلوك طريق الحق أوّله مجاهدة ومكابدة وآخره مشاهدة الحقائق على ما هي عليه وذلك من بعد ارتفاع حجاب الوهم المانع من ذلك " [1]

كما أنّ الأمير أعجب بمتصوفة الإسلام كالشيخ محيي الدين ابن عربي والسهروردي وغيرهم، ولجأ إلى الرموز الصوفية للتعبير عن مواجده وأحواله الروحية ؛ " لأن التجربة الصوفية بحد ذاتها غامضة لا يمكن التعبير عنها تعبيرا صافيا مباشرا، فالرموز هي أطوع للشاعر من الكلمات الجامدة، ذات المدلول المحدود المعين، للتعبير عن تلك النفحات التي تهب على قلبه فتدركها بصيرته ولا يستوعبها عقله " [2]

ومن معين الشعر العربي القديم اغترف ونهل، وخاصة من شعر الغزل العفيف، فهو في حبه وشوقه إنما يعبر عن حالة الوله التي تعتري المتصوف، ومناجاته للذات الإلهية، فيعمد إلى ألفاظ الوصال والشوق والهيام والوجد والهجر والفراق والصبابة والعشق...وغيرها.

[1]– رزقي بن عمر، مدخل إلى نظرية وحدة الوجود – مفاهيم عن تجربة الأمير عبد القادر الصوفية – تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، ط1، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكر، دار القدس العربي، الجزائر، 2010، 163

[2]– نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1954، ص 24

يقول الشاعر في أبيات تدلل على الشعر الغزلي:

ليتهم إذ ملكوني أسمحوا	*	ليتهم إذا ما عفوا أن يصفحوا
رحلوا العيسَ ولم أشعرْ بهم	*	ليتَ شعري أيّ وادٍ صبّحوا
أخذوا قلبي وماذا ضرّهُم	*	أن يكونوا – بجميعي-جنحوا؟
أيّ عيشٍ يهنا لي من بعدهِم	*	طار قلبي وعظامي ملّحُوا
ويحَ أهلَ العِشقِ هذا حظّهم	*	هلكى مهما كتموا أو صرّحوا [1]

فالحب عند المتصوفة يتجاوز المادي المحسوس، لينطلق نحو العوالم الخفية، ويسبح في الملكوت الربانية، يناجي الروح في عليائها وبهائها، ويرى في مناجاتها ووصلها أقصى غاياته، وأعظم لذّاته، وأسعد وأهنأ ساعاته.

وفي القصيدة التالية، وعلى غرار القصائد الغزلية تبدأ بمطلع في النسيب، يذكر الشاعر أسماء المحبوبات، ويصوّر لواعج الحبّ، ووطأة الوجد، وحرارة الشوق، فهو أسير الفؤاد، مكلوم القلب، أخو جنّة، قد أضناه الليل واكتوى بلهيبه يشبه الملسوع بلسعة حيّة أو أفعى، لا يجد راحته، ولا يتحقّق هناؤه إلاّ بالقرب من الحبيب والفناء فيه، ولكن أيّ محبوب يقصد أو يخاطب ؟ ليس في خطابه للمرأة التي هام حبا وولها بها إلاّ رمزا للذات الإلهية، في حنينه إليها، وتشوّقه وصبابته بها، يقول:

[1]– الأمير عبد القادر الجزائري، الديوان، تحق: زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجزائرية للكتاب، ص 129، 130

يقولون لا تنظر سعادٌ ولا علوا	*	وعدِّ من الآثارِ واقصد لِمن تهوى
فإنكَ مكلومَ الفُؤادِ متيَّمٌ	*	أخو جِنّة بل منها داؤك إذا أدْوا
وقد ملك الليلُ البهيمُ تحرُّقاً	*	كأنّكَ ملسوعٌ وحالك ذا أسْوا
نظرتُ إليهِ والمليحةُ تحسبَنْ	*	نظرتُ إليها لا ومبسَمهُ الأضْوا
يكلمُني بالرمزِ من خلفِ ساترٍ	*	وما كلَّ ما أمّلتْ عيونُ الظِّبا يُروى
فلا متكلّمٌ سواهُ مُخاطِبٌ	*	ولا سامعٌ إلاّهُ للسرِّ والنّجوى
أُخاطبني إيّايَ فيهِ تحقّقًا	*	فاسمعي إيّاي فيَّ ولا غروَا
فقل للذي ما ذاق طعمَ شرابِنا	*	ولا خاضَ بحرنا حقيقا ولا دعوا
إليكَ تنحّا إنّنا خُضنا أبحُرًا	*	وتلك البحارُ بعدنا تُركَتْ رهوا [1]

وألفاظ القصيدة استقاها الشاعر من معين الوجدان، ونبع العواطف والمشاعر الدفينة المتأججة؛ فقد صوّر حال المحب الذي أضناه الهوى، وأبلاه داء الصبابة والوله، فصار بين يدي محبوبه وفي حضرته، ضعيف ساكن، لا يملك من أمره شيئا، لا عقل يقوده، ولا إدراك يضبطه، فصار في جنون وخبال، يسير هائما على وجهه، ينتقل من حال إلى حال.

وكثيرا ما رمز المتصوفة بحبهم للمرأة، للذات الإلهية " فجنس المرأة، لما كان محلا للتكوين كان أقرب إلى المكون، وإنّ حضرة الانفعال لها شرف عظيم، وفضل فخيم، وقدر

[1]– ديوان الأمير عبد القادر، ص 319، 320

جسيم، من حيث أنّ حضرة الفعل والوجوب والتأثير، إنما ظهرت بها وتعيّنت بسببها، فلو كانت هذه الحضرة غير قابلة للانفعال والتأثير، ما حصل تأثير أصلا، ولا كان لحضرة الفعل والوجوب ظهور، ألا ترى العدم المطلق، وهو المستحيل،.. فهذه الحضرة الانفعالية، التي هي مظهر للحضرة الفعلية الجامعة للأسماء والصفات على الإجمال والتفصيل، وهي الاسم الجامع " الله "" [1]

ولا يتحقق الفناء إلاّ بمحبة الله سبحانه وتعالى، والتقرب منه بالطاعات وأداء العبادات، والقيام بالنوافل، لذلك محبة الله " هي لبّ التصوف وجوهره تتردّد في مواضع كثيرة من التنزيل والسنة النبوية وكذلك تتردد المنازل الموصلة إليها من تلاوة القرآن وعبادة الله بالصلاة والصيام وأداء الفرائض والنوافل ودوام ذكر الله وتسبيحه والتأمل في ملكوته والتوبة إليه والتوكل عليه والخلوص له والانقياد والاستسلام الكامل بالقلب ظاهرا وباطنا حتى لا يبقى في القلب موضع لغيره. " [2]

وفي شعر الأمير يتجلى تأثره بابن عربي ؛ وخاصة في نظرية وحدة الوجود، وفكرة الفناء، يقول في هذا المعنى:

[1]– الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحق: عاصم إبراهيم الشاذلي الدرقاوي،ج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ص237

[2]– شوقي ضيف، فصول في الشعر ونقده، ص 200

أيا أنا من أكونُ إن لم أكن أنتَ	*	ويا أنتَ من تكونُ إن لم تكنْ أنا
ما بالكمْ قلتمْ إلـــــــــهٌ واعبدْ	*	فكثّرتمْ لذلك طاشتْ عقُولـــنا
إذا رُفعت من بيننا العينُ والألفُ	*	فقد رُفع السترُ المفرّق بيننا
وذلك حين لا أنا لكَ عابدٌ	*	ولا أنتَ معبودٌ فزال حجابُنا [1]

أو كما قال ابن عربي في معنى قريب: " يقول: تارة انظرني من حيث هو وتارة من حيث أنا، فتارة أكون موجودا به عند مخاطبته إياي بالتكليف، وتارة أكون مفقودا في نفسي بمشاهدتي إياه، فيوجدني بالتكليف ويفقدني بالشهود. إذ متعلّق الشهود العين ذهاب الرسوم ومحو الموهوم. " [2]

وفي قصيدة أخرى تعج بدلالات الحب ومعاني الشوق والصبابة، يصور الشاعر لوعته، وتتصعد زفراته، ونار أشواقه، لتعانق الذات الإلهية، معرجا على الديار، والمواضع والمحال.. لكنها ليست ديار سلمى أو لبنى، بل هي ديار الحبيب المصطفى محمدا عليه الصلاة والسلام، ديار شهدت ميلاده، وعلى ثراها درجت أقدامه الشريفة الطاهرة، ومن بطاحها انبلج نوره، وهلّ ضياؤه، سراجا منيرا يهدي الضالين، ويسعد الحيارى والتائهين إلى نور الله تعالى، يقول:

[1]– ديوان الأمير عبد القادر، ص 301

[2]–محيي الدين ابن عربي، التجليات الإلهية، ص185

عن الحبِّ ما لي كلّما رُمتُ سلوانا	*	أرى حشو أحشائي من الشّوق نيرانا
أُسائلُ عن نفسي فإنّي ضللتُها	*	وكان جنوني مثل ما قيل أفنانا
أسائل من لاقيتُ عنّي والها	*	ولا أتحاشاهم رجالا وركبانا
وأسألُ عن نجدٍ وفيه مخيّمي	*	وأطلبُ روض الرّقتينِ ونعمانا
منازلُ كانت لي مصيفا ومربعا	*	غداةَ بها أدعى صبيًا وشِيبانا
ومن عجبٍ ما همتُ إلاّ بمهجتي	*	ولا عشقتْ نفسي سواها وما كانا
أنا الحبُّ والمحبوبُ والحبُّ جملةً	*	أنا العاشقُ المعشوقُ سرًّا وإعلانا [1]

فالحب هو لغة المتصوفة المشتركة، فسبيلهم للكشف والوصل والمشاهدة، يتم بالحب والوجد والصبابة بالمحبوب، وقد صوّر جلال الدين الرومي الحب وما يفعله بالمحبين فقال: " إن الحب ليحول المرّ حلوا، والتراب تبرا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميّت، وينفخ فيه الحياة، ويسوّد العبد. " [2]

نخلص من هذه الدراسة أن أعلام التصوف في القديم والحديث، مارسوا التصوف سلوكا واجتهادا وعبادة وأقوالا، واغترفوا من منابع التصوف والزهد الأصيلة ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسيرة السلف الصالح، وعبّاد الأمة وفقهاؤها، مع

[1]– ديوان الأمير عبد القادر، ص 299، 300، 301

[2]– محمد أحمد درنيقة، معجم شعراء الحب الإلهي، ط1، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2000، ص 108

انحراف بعضهم عن ما يسمى بالتصوف السني إلى تصوف فلسفي، يغترف من فضاءات الفلسفة وعوالمها الشائكة.

المحاضرة الحادية عشر: الشعر الصوفي في المغرب الإسلامي

يعدّ القرن الثاني و الثالث الهجريين، الزمن الذهبي لنشوء تيار الزهد، و رواج أشعار الوعاظ و النساك، كما امتزج في أحايين كثيرة بالقصص الديني، كما وضح ذلك الجاحظ في كتابه (البيان و التبيين) و قد انتشرت هذه الظاهرة في المشرق أولا، ثم تأثر بها المغاربة و الأندلسيين.

و الزهد في وجوده الأول يرتبط ارتباطا وثيقا بظهور الإسلام " و زاهد الأمة الأول محمد ﷺ ، و كان كثيرون في أيامه يأتسون بزهده و تقشفه"[1]

و قد آثر الزهاد في بيئات العراق والحجاز والشام، سلوك سبيل التقشّف، والإعراض عن الدنيا، والانصراف عن ملذاتها الفانية "و كانوا يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل و عبادة و تقشّف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة و ملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظارا لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول. و في البيان و التبيين و عيون الأخبار و العقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سفيان الثوري المتوفى سنة 161 هـ و داود الطائي المتوفى سنة165 هـ،وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة 181هـ والفضيل بن عياض المتوفى سنة 187هـ و سفيان بن عييّنة المتوفى سنة 198هـ "[2]

و في المغرب الإسلامي انتشرت ظاهرة الزهد، لكثرة الزهّاد و العبّاد " و كان مما عمل على كثرة الزهاد فيه و النساك، الجبال الكثيرة التي كانت تتيح لهم العزلة عن الناس

[1]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان دار المعارف، القاهرة، ص 198

[2]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط6، القاهرة، ص 85

للعبادة كما تتيح لهم كثيرا من الثمار التي يقتاتون بها..و أيضا مما ساعد على كثرة الزهاد هناك كثرة الملاجئ للعبادة، تبنيها لهم الدول المختلفة، مع كثرة ما كانت تبنى لهم من الزوايا،و مع كثرة ما كانت تبنى من مؤسسات المدارس ملحقة بها مباني للشيوخ و الطلاب و تكفيهم مؤونتهم، فكان كثيرون منهم يتحولون زهادا و نساكا" [1]

كما نجد عددا من الشعراء الزّهاد،الذين ألحوا على معاني الزهد و دلالاته، كذكر الموت و البعث و الحساب، و التهوين من أمر الدنيا، و الترغيب في الدار الآخرة و ما ينتظر المحسنين فيها من جنان و ثواب، و الحث على الفضائل، و الدعوة إلى قيّم الإسلام الأصيلة ؛كالصدق و التقوى و العفاف و التواضع و المروءة و السماحة.. و غيرها.

و يعد الشاعر الجزائري "بكر بن حماد التيهرتي" من أشهر شعراء الزهد في القرن الثاني الهجري، و في أبياته يذكر الموت، فيقول:

لقد جمحتْ نفسي فصدّتْ و أعرضتْ	*	وقد مرقتْ نفسي فطال مُروقُها
فيا أسفي من جُنح ليلٍ يقُودها	*	وضوءِ نهارٍ لا يزالُ يسوقُها
إلى مشهدٍ لا بدّ لي من شهودهِ	*	ومن جرعٍ للموت سوف أذوقُها
سحاب المنايا كلّ يومٍ مظلّةٌ	*	فقد هطلت حولي و لاحَ بروقُها
تجهّمتُ خمسا بعد سبعين حِجّةً	*	ودام غروبُ الشمس لي طلوعُها
وأيدي المنايا كلَّ يومٍ و ليلةٍ	*	إذا فُتقتْ لا يُستطاعُ رُتوقها
تصبّحُ أقواما على حين غفلةٍ	*	ويأتيكَ في حين البياتِ طروقُها[2]

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، مرجع سابق، ص 462.

[2]– الدرّ الوقّاد من شعر بكر بن حماد، جمع وشرح: محمد رمضان بن شاوش، ط1، المطبعة العلوية، مستغانم، 1385 هـ، 1966 م، ص 78، 79

و من الزهاد، و الشعراء الوعّاظ الذين عرفوا بالتقوى و الورع، و كانت لهم مقامات سامية بين أهل زمانهم، لما شاع عنهم من صدق إيمان و اعتقاد بالله؛ إمام أهل المغرب في الاعتقاد " السلالجي عبد الله بن عثمان" المتوفى سنة 564هـ،و كان معاصرا للمرابطين، و قد أنشد له صاحب الوافي هذه الأبيات، التي يدعو فيها إلى العلم اللّدني، ويرغب في سلوك سبيل الزهد، فيقول:

إذا العلمُ لا تغشى غرائبُهُ قلبي	*	ولا شاقني منه إلى المنهلِ العذبِ
ولا أنا ممّن جاوز الدّربَ ناهضًا	*	إليهِ و لا أرضى مقامي من ربّي
ولا كان حظّي منه إلاّ حكايةً	*	على الناسِ أتلُوها فحسبي إذنْ حسب
ولا ترضَ بالحظِّ الخسيسِ سفاهةً	*	فمثلُك من قد حلَّ في المنزلِ الرَّحبِ
تجافوا عنِ الدّارِ التّي أصبحوا بها	*	على غربةٍ واستوطنوا حضرةَ القُربِ
وإنْ كان لا ينجيكَ إلاَّ رُكوبُها	*	ماذا التّجافي عن مجاورة الرَّبّ [1]

و من كبار الزهاد و الوعاظ في عصر الرابطين، ممن عرفوا بالصلاح و التقوى" القاضي عياض" و مما قاله مبتهلا لله سبحانه و تعالى:

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، مرجع سابق، ص463

إليكَ بوتُ بذنبِي	*	فاغفرْ خطاياَيَ ربِّي
وامنُنْ عليَّ بلطفٍ	*	تجبرْ بهِ صدعَ قلبِي
فقد ركبتُ ذنوبًا	*	سوّدتُ منهنَّ كتْبي
وجئتُ أطلبُ توْبًا	*	إذْ ضاقَ بالذّنبِ رحبِي
فاقبلْ بفضلكَ توْبي	*	واغْفرْ برُحماكَ ذنبِي
وعافِني واعفُ عنِّي	*	فأنتَ يا ربِّ حسبِي[1]

أما أبو إسماعيل الكاتب، إبراهيم بن غانم بن عبدون(ت 421 هـ) وهو من الشعراء المعاصرين لابن رشيق، ذكره في الأنموذج، وأثنى على شاعريته، وحسن صياغته، كما أشاد بشعره الوعظي الحكمي، فقال فيه:(لطيف الألفاظ نظيفها، رشيق المعاني وجيزها غوّاصا في بحر الحكمة على درّ بديع، قليل المديح والهجاء، كلفا بالمواعظ في شعره) [2]

لذلك يورد له ابن رشيق أبياتا يشيد فيها بحسن السجايا، و فضائل الأخلاق؛ كالصبر والشهامة وسعة البال، كما يدعو إلى التوكّل على الله تعالى في الأمور كلّها، يقول:

[1]– القاضي عياض، الديوان، سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (19 ص 21

[2]– ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تحق: محمد العروسي المطوي، بشير البكّوش، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1406هـ، 1986، ص 50

ربّما كانت الخلائق إن ضا	*	قتْ بخطبٍ معدودةٍ في الخطوبِ
وتهونُ الأحداثُ عند معانٍ	*	بفؤادٍ شهمٍ وصدرٍ رحيبِ
ورجاء المعسورِ يثمرُ في الأنفس	*	يسرًا تنالُهُ من قريبِ
والصّبورُ الدّاعي إلى اللهِ محبُوٌّ	*	مجابٌ من السّميعِ المجيبِ
فتوكّلْ عليه يكفِكَ و الزَمْ	*	حكم ذي حكمةٍ ورأيٍ مصيبِ[1]

ويدعو بكر بن علي الصابوني(ت 409 هـ)إلى عدم الغفلة، والتّنبّه إلى حقيقة الدنيا ؛ فالموت مصير كلّ حيّ، والمرء وإن طالت سلامته، فهو لا محالة على آلة حدباء محمول كما يقول كعب بن زهير. يقول الصابوني:

أمرضَ بالوعظِ القلوب الصحاحَ	*	ما قاله الهاتفُ عند الصّباح
أيقظني من نومتي في الدّجى	*	شخصٌ سمعتُ القول منه كفاح
يقول: كم ترقدُ يا غافلاً	*	والدّهرُ إن لم يغدُ بالموت راح
تركن للدنيا كأنْ لا براح	*	منها وتغدو لاهيًا في مزاح
ما الدّهرُ والأيام في مرّها	*	إلاّ كبرقٍ خاطفٍ حين لاح [2]

ومن المعاني الوعظية، والمضامين الزهدية التي يلح عليها الشعراء، الدعوة إلى طلب العلوم الشرعية، والتفقّه في الدين لا رغبة في عرض الدنيا الزائل، والدعوة إلى تقوى

[1]– ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص51

[2]– نفسه، ص95

الله، و هذا ما نقرأه في أبيات حسين بن محمد بن هيثمون، أبو طالب الدلائي الجهني، يقول:

اجعلِ العلَم يا فتى لك قيدا	*	واتَّقِ الله لا تخنه رويدا
لا تكن مثل معشر فقهاء	*	جعلوا العلمَ للدراهم صيدا
طلبوهُ فصيّروه معاشا	*	ثمَّ كادوا به البريّةِ كيدا
فلهذا صُبَّ البلاءُ علينا	*	مستحقًّا ومادت الأرض ميدا[1]

أما صاحب العمدة "ابن رشيق القيرواني" فيقر بذنوبه، ويعترف بسيئاته التي اقترفها في الحياة الدنيا؛ ومع ذلك فهو يرجو عفو الله،وأن يدخله في رحمته الواسعة، يقول:

إذا أتى اللهُ يوم الحشرِ في ظللٍ	*	وجيءَ بالأممِ الماضين و الرُّسلِ
وحاسب الخلقَ من أحصى بقدرته	*	أنفاسَهم وتوفّاهم إلى الأجـلِ
ولم أجدْ في كتابي غير سيّئةٍ	*	تسوءُني وعسى الإسلام يسلمُ لي
رجوتُ رحمةَ ربّي وهيَ واسعةٌ	*	ورحمةُ الله أرجى لي منَ العملِ [2]

ويدعو الشاعر عبد الله بن رشيق(ت 419 هـ) إلى الإيمان بقضاء الله و قدره،وذكر الموت الذي لا بد منه لكل حيّ، يقول:

[1]– ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص 118

[2]– أبو البركات عبد العزيز الميمني الراجكوتي، النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ص 62

خير أعمالكَ الرضى * بالمقاديرِ والقضا

بينما المرءُ ناطقٌ * قيل: قد كان فانقضى[1]

ومن شعر علي بن حبيب التنوخي(ت440 ه)أبياتا وعظية، يرجو فيها عفو الله، وأن يتجاوز عن إسرافه في الذنوب والمعاصي، فيقول:

للمرءِ في أيامهِ واعظٌ * لو فكّرَ المغرورُ في أمسهِ

كم من قريرِ العين في غبطةٍ * أعراهُ صرفُ الدّهرِ من لبسهِ

ففارق الأحباب عن كرهِهِ * واستبدل الوحشة من أنسهِ

يا ربّ غفرانكَ يرجو الذي * أسرفَ في الدنيا على نفسهِ[2]

أما الوزير علي بن أبي الرّجال(ت 426 ه) رئيس ديوان الإنشاء للدولة الصنهاجية، فيلح على معاني الخوف من الله وخشية عذابه، والعمل للدار الآخرة؛ حتّى يكون الجزاء من جنس العمل، يقول:

أمنُ الزمان زمانةُ العقل * فاخشَ الإله وحلْ عن الجهلِ

واعلمْ بأنَّك في الحسابِ غدًا * تُجزى بما قدَّمتَ من فعلِ[3]

وقد أورد صاحب الخريدة أبياتا زهدية، لأبي عبد الله محمد ابن شرف القيرواني، وقال: إنه قالها عند وفاته:

---

[1]- ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص 192

[2]- نفسه، ص 281

[3]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية دار المعارف، القاهرة، ص 289

رحلتُ وكنتُ ما أعددتُ زادا * وما قصّرتُ عن زاد المُقيمِ

فها أنا قد رحلتُ بغير شيءٍ * ولكنّني نزلتُ على كريمِ [1]

وفي ديوان "اقتراح القريح واجتراح الجريح" لأبي الحسن الحصري القيرواني،أبياتا وعظية وحكمية ؛ فهو يدعو إلى الثقة بالله تعالى، والخوف منه لا من الناس، يقول:

ثقْ بالإله ولا تخف من ظالمٍ * كم من مريدِكَ والإلهُ يريدُهُ

إنّ الرشيدَ نوى لهُ الهادي الرّدى * فتوفيَّ الهادي وعاش رشيدُهُ[2]

وفي أبيات أخرى، يذكر الموت والمعاد، ومَن أحسن فإن الجنة مأواه، ومن أساء فإن النار مستقره ومآله، يقول:

تباركَ المبديء المعيد * قد صدقَ الوعد والوعيد

الموتُ من آملٍ قريب * وهو يرى أنّهُ بعيد

يودَّ لو عاشَ ألفَ عامٍ * وكلَّ يومٍ لديهِ عيد

والكاتبُ البرَّ عن يمينٍ * وعن شمالٍ له قعيد

من كانَ لا علمَ عندهُ هلْ * يشقى غدًا أمْ هو السّعيد

فكيف يهنيهِ طيبُ عيشٍ * آخرهُ الموت والصَّعيدُ[1]

[1]– العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس تحق: آذرتاش آذرنوش، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحي، محمد المرزوقي، ج2، ط2، الدار التونسية للنشر، 1986، ص 173

[2]– أبو الحسن الحصري القيرواني، حياته وأعماله (ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح تحق: محمد المرزوقي، الجيلاني بن الحاج يحي، مكتبة المنار، تونس، 1963، ص 261

ويتجلى في أبيات أخرى اقتفاء آثار أبي العتاهية، إذ يتمثل طريقته الشعرية من حيث سهولة اللغة، والتنويع في الموضوعات الزهدية، والاقتباس من القرآن الكريم، كما في قوله:

قد حانتِ الساعة القنوت * فحسبك التَّوبُ والقنوت

جاءتكَ أشراطها ومنها * جورُ السّلاطين والسنوت[2]

ويدعو الإنسان إلى التأمل في حقيقة وجوده، فالله خلقه من صلصال كالفخار، فلماذا الغرور والكبر؟ وبذلك يستوي العبد والسلطان، يقول:

بأيِّ خليقةٍ منّي تراب * وأنتَ حقيقةٌ وأنا تراب

برانا من سقا الألبان شتّى * والهم كيف تحلبُ أو تراب

فكرتُ في خلق الورى فاستوى * عندي عبيد وسلاطين

أصلُ الفريقين ـــــ ومن أجل ذا * قلبي عن الهم سلا ـــــ طين[3]

ويفلسف الحصري القيرواني الموت،مترسما خطى أبي العلاء المعرّي، ومما عمّق مأساته فقده لفلذة كبده(عبد الغني) يقول:

دهرٌ حوادثُه شتَّى الأحاديث * فاسمع بما شئتَ عن نوحٍ وعن شيث

وسل عن ابن الترابِ البكرِ كيف هوى * فأصبحت قوةٌ فيهِ لتنكيثِ

[1]– أبو الحسن الحصري القيرواني، حياته وأعماله (ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح ، ص262

[2]–نفسه، ص 269

[3]–نفسه، ص 269

تغرَّنا دارُنا الدّنيا بزخرفها	*	ونحن في طلبٍ للموتِ محثوثِ
وإنّما هي أضغاثٌ تُضَغّثُها	*	خواطرُ الوهمِ فيها أيَّ تضغيثِ
ما أتعب النّاسَ أحياءً وأروحهُم	*	موتى لو أنَّ رميما غيرَ مبعوثِ[1]

ولأبي عبد الله بن قاضي ميلة،أشعار في الوعظ و الحكمة، شاعت وعرفت بين الناس؛ أو كما قال صاحب الذخيرة:" ولأبي عبد الله أشعار شاردة سارت على ألسنة الأنام.وكتبت في جبهات الأيام، غير أنه لم يقع إليّ منها عند تحرير هذه النسخة إلاّ ما أثبتّ" [2]

وفي هذه الأبيات، ينبه الشاعر إلى حقيقة الدنيا، فهي أشبه بقنطرة عبور، وخير زاد يدخره المرء لغده التقوى، يقول الشاعر:

لدنياكَ نورٌ ولكنَّهُ	*	ظلامٌ يحارُ به المبصرُ
فإن عشتَ فيها على أنَّها	*	كما قيل قنطرةٌ تُعبرُ
فلا تعمرنَّ بها منزلاً	*	فإنَّ الخرابَ لما تعمر
ولا تذخرنَّ خلاف التّقى	*	فيفنى ويبقى الذي تذخرُ

[1]– أبو الحسن الحصري القيرواني، حياته وأعماله (ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح ، ص 289

[2]– ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحق: إحسان عباس، القسم 4، مج 1، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1399 هـ، 1979 م، ص 530.

وظنَّ أناسٌ بأن قد سمَوا * فقالوا علونا ولم يشعروا

كذا البحرُ يطفو عليه القذى * ويَرسبُ في قعرِهِ الجوهر[1]

فأشعار الزهد هي غيظ من فيض، ومما أخلص إليه أن أشعار الزهد كثيرا ما تتمحور حول موضوعات الموت و الحشر والحساب، والدعوة إلى الاستمساك بفضائل الأخلاق، والحثّ على التقوى والخوف من الله تعالى، والتحقير من شأن الدنيا لأنها دار فناء، وليست بدار خلود أو بقاء، واللّبيب من اتّعظ بغيره، وأعدّ العدّة وتزوّد للدّار الآخرة.

2-شعر التصوّف:

انتشرت هذه الظاهرة كثيرا في بلاد المغرب الإسلامي، وخاصة في القرن السادس و السابع الهجريين؛ وهذا لكثرة الرباطات وانتشار الزوايا، ولذلك برزت أسماء عظيمة في التصوف و الزهد كأبي مدين شعيب دفين تلمسان(ت594هـ) وأبي عبد الله الشوذي الأشبيلي، ومحيي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية(ت638 هـ)،وابن سبعين عبد الحق، وأبو الحسن الشاذلي دفين الإسكندرية..وغيرهم من أرباب التصوف.

وبالرجوع إلى القرن الخامس الهجري لا نجد أسماء كثيرة،ربما يعود الأمر إلى شحّ المصادر المغربية وقلّتها.

* تعريف التّصوف: ورد في كتاب التعريفات ما يلي:" مذهب كله جدّ.فلا يخلطوه بشيء من الهزل. وقيل: تصفية القلب من موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبعية وأحماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلّق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله تعالى على الحقيقة، واتباع رسوله ﷺ في الشريعة"[2]

[1]- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 531

[2]-الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ص 123

ويعرف ابن خلدون التصوف فيقول:" وأصلها –أي طريقة التّصوف –العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة." [1]

وقال الكرخي: " التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق"[2]

وللمتصوفة لغتهم الخاصة، كما نجد لهم مقامات وأحوال. يقول ابن خلدون:

"ثم لها آداب مخصوصة واصطلاحات من ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة.."[3]

من شعراء التصوف في هذه المرحلة "محرز بن خلف بن رزين" و ينتهي نسبه إلى" أبي بكر الصّديق" نشأ وتربّى في تونس، وأخذ عن فقهائها وعلمائها، مبادئ الإسلام وعلوم الشريعة و الفقه، كما تبحّر في علوم اللغة العربية، "وكان تقيا صالحا يتوفر على عبادة ربّه والنسك له، مما لفت إليه أنظار مواطنيه، وجعلهم يحسنون الاعتقاد فيه، حتى أطلقوا عليه اسم الولي الصالح، وظل هذا الاعتقاد يلازم التونسيين بعد وفاته عن سبعين عاما ونيف سنة413 هـ حتى لقّبوه بسلطان المدينة "[4]

ومن أشعاره الشائعة،يصور فيها الدنيا وتقلباتها، يقول:

أبدتْ لنا الدنيا زخارفَ حسنِها	*	مكرًا بنا وخديعةً ما قرَّتْ
وهي التي لم تحْلُ قطَّ لذائقٍ	*	إلاَّ تكدَّر طعمها فتمرَّرتْ
خدّاعةٌ بجمالها إنْ أقبلتِ	*	فجّاعةٌ بزوالِها إن أدبرتْ

[1]– أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج4، دار الأصالة للطبع والنشر والتوزيع، بئر التوتة، الجزائر، 2010، ص 118

[2]– نفسه، ص 119

[3]– نفسه، ص 118

[4]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا ـ تونس ـ صقلية)، ص 293

وهَّابــةٌ سلّابةٌ لهباتِها	*	طلَّابةٌ لخراب ما قد عمَّرتْ
فإذا بَنَتْ أمرا وتمَّ بناؤُها	*	نصبت مجانقَها عليهِ فدمَّرتْ[1]

وفي أبيات غيرها يصف الظالمين المتجبرين، المتمادين في غيّهم المغترّين بجاههم و سطوتهم، ويوجه كلامه للمظلوم فيدعوه للصّبر، فللظالم يوم يلاقي فيه مصيره المحتوم. يقول:

إذا ظالمٌ قد عاهد الظّلْمَ مذهبًا	*	وجار غُلوًّا في علوِّ اكتسابهِ
فكِلهُ إلى ريبِ الزَّمان وجورهِ	*	سيبدي لهُ ما لم يكن في حسابهِ
فكم ذا رأينا ظالمًا متجبِّرًا	*	يرى النجم تيهًا تحت ظلِّ ركابِه
فلمّا تمادى واستطال بجورِهِ	*	أناختْ صروفُ الحادثاتِ ببابهِ
وعوقب بالذنبِ الذي كان يجتني	*	وصبَّ عليه اللهُ سوطَ عذابهِ[2]

وله موعظة يحث فيها على التأمل في مصير الماضين، الذين شادوا القصور، وبنوا الممالك، أين هم؟ لقد وسّدوا الجنادل بعد الحرير، يقول:

لقد وُسِّدوا بعد الحرير جنادلاً	*	ولم يستطيعوا للحوادثِ مدفعا
ولم يغنِ عنهم ما بنوهُ وشيَّدوا	*	وما مُتِّعوا في الدَّهرِ مع من تمتَّعا
ولن تسمعوا إلاّ الصَّدى بعد هاتفٍ	*	مُجيبًا لهُ ثمَّ الرّياحَ الزَّعازعا[1]

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا ـ تونس ـ صقلية)، ص 294

[2]– نفسه، ص 294

واشتهر كذلك في مجال التصوّف شخصية مغربية ذائعة الصيت، وهو "أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بالنحوي" و يقال: إن أصله من مدينة بسكرة " إلاّ أنّ أبويه انتقلا إلى توزر(إفريقية) وبها ولد ونشأ ثمّ ارتحل إلى المغرب الأوسط واستقر بقلعة بني حمّاد بعد أن زار المغرب الأقصى. وكان من أهل العلم والفضل شديد الخوف من الله لا يأكل إلاّ من مال له كان يأتيه من توزر، وتوفي بقلعة بني حمّاد "[2]

وقد أثنى القاضي عياض على صلاحه وتعفّفه، فقال:" كان من أهل العلم والفضل، شديد الخوف من الله، غالب حاله الحضور معه تعالى" [3]

وللشاعر قصائد في التضرّع لله تعالى و الابتهال إليه، وأشهر أشعاره "المنفرجة" وللقصيدة تخميسات وتشطيرات كثيرة، واشتهرت بين الدارسين مشرقا ومغربا.

يقول الشاعر في مستهلها:

اشتدِّي أزمةٌ تنفرجي	*	قد آذنَ ليلكِ بالبلجِ
وظلامُ الليل له سرجٌ	*	حتّى يغشاه أبو السَّرُجِ
وسحابُ الخير له مطرٌ	*	فإذا جاء الإبّان يجي
وفوائد مولانا جُملٌ	*	لسرورِ الأنفسِ والمهجِ
ولها أرجٌ مُحيٍ أبدًا	*	فاقصدْ محيا ذاك الأرجِ
والخلقُ جميعًا في يدهِ	*	فذوو سعَةٍ وذوو حرجِ[1]

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا ـ تونس ـ صقلية)، ص 295

[2]– محمد بن رمضان شاوش، الغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2011، ص 167

[3]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية)، مرجع سابق، ص 295

فالشدائد وإن ألمت، والمحن وإن كثرت، سيأتي لا محالة الفرج، والظلمة إن اشتدت، ستشرق الشمس من جديد، كما نجده " يسلم أمره إلى ربّه مؤمنا بأنّ أيّ أزمة أو كارثة مهما اشتدت لابدّ أن تنفرج، وأنّ ليلها ليوشك أن يتلوه البلج أو ضوء الصباح، ونفس ظلام الليل الدّاجي له سرج من النّجوم حتّى يغمره ضوء الشمس أو السرج، وإنّ كلّ شئ له أوان، وما أسرع أن يهطل سحاب الخير حتّى يأتي إبّانه وأوانه، وإنّ نعم الله لتأتي جملا تترى لتضيء النفوس والأرواح ولها شذى عطر محي دائما فاقصده واحرص عليه حتّى تحيا حياة هنيئة، وارض بقضاء الله في قسمته الخلق بين موسّع و مضيّق عليه في الرزق" [2]

وسبيل المؤمن لولوج الجنان والفوز بالدرجات العلى في الدار الآخرة،لا يتمّ إلاّ بالتّقوى، والسير على درب الهدى، يقول:

وإذا انفتحتْ أبوابُ هدىً	*	فاعجلْ لخزائنها ولِجِ
ولطاعتهِ وَصباحتها	*	أنوارُ صباح منبلج
من يخطبْ حور العين بها	*	يظفرْ بالحورِ وبالغنجِ
وكن المرضيَّ لها بتقىً	*	ترضاهُ غدًا وتكونُ نجيِ [3]

وفي أبيات أخرى يلحّ الشاعر على ذكر الله،وتلاوة القرآن و التضرع إليه،"والمنفرجة في أربعين بيتا، كلها بهذه اللغة السلسة العذبة وهذه الموسيقى ذات الألحان البديعة،.وكان

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية)، مرجع سابق ، ص 295، 296

[2]– نفسه، ص 296

[3]– نفسه، ص 296

أبو الفضل صوفيا بحقّ، يأخذ نفسه بالتقشّف ويلبس خشن الصّوف،ويعبد الله كأنه يراه أو كما قال عياض كأنه حاضر معه "[1]

ويتضرّع إلى الله ويبتهل، فيقول:

لبستُ ثوب الرّجا والنّاس قد رقدوا	*	وقمتُ أشكو إلى مولايَ ما أجدُ
وقلتُ يا سيّدي يا منتهى أملي	*	يا من عليه بكشف الضرّ أعتمدُ
أشكو إليك أمورا أنت تعلمها	*	مالي على حملها صبرٌ ولا جَلدُ
وقد مددتُ يدي للضرِّ مشتكيا	*	إليك يا خير من مُدّت إليه يدُ [2]

وقد عارض كثير من الشعراء المغاربة والأندلسيين هذه القصيدة، لجمالها وحسن بيانها، وتفنّن صاحبها في نظمها

ويقال: إنه كان متعففا، لا يقبل صدقة من أحد، بل كان يعيش من ضيعة له بتوزر، وفي هذا المعنى يقول:

عطاءُ ذي العرشِ خيرٌ من عطائكم	*	وسيبُهُ واسعٌ يرجى ويُنتظرُ
أنتم يكدّرُ ما تعطون منّكم	*	والله يعطي فلا منٌّ ولا كدرُ
لا حكم إلاّ لمن تمضي مشيئتُهُ	*	وفي يديهِ على ما شاءهُ قدرُ [3]

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية)، مرجع سابق ، ص296

[2]– نفسه، ص 297

[3]– حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، مج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بيت الحكمة، تونس، 1990، ص 465، 466

وقيل: إنه لما عزم على السفر إلى بيت الله الحرام، كتب إليه أهل بيته لمن تتركنا، فكتب إليهم بهذه الأبيات:

إنَّ الذي وجهت وجهي إليه * هو الذي خلّفت في أهلي

لأنه أرفق منّي بهم * وفضلهُ أوسعُ من فضلي[1]

فالله تعالى يعطي ولا يمنّ، كما أنه خير رفيق وأنيس، وفضله أعظم وأوسع، وهذا يدلّ على صدق إيمانه بالله وحسن ظنّه به

3-المدائح النّبويّة:

المدح في اللغة: هو الثناء، أما في الاصطلاح:فهو غرض شعري،يركز فيه الشاعر على تعداد مناقب الممدوح، وإحصاء فضائله الخَلقية و الخُلقية.

تعريف المدائح النّبويّة: هي تلك الأشعار التي قيلت في حضرة النبيّ المصطفى.

عرفها بعض الدارسين، فقال:" المديح النبوي هو ذلك الشعر الذي ينصب على مدح النبي ﷺ بتعداد صفاته الخلقية والخلقية، وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدّسة التّي ترتبط بحياة الرسول ﷺ ، مع ذكر معجزاته المادية والمعنويّة ونظم سيرته شعرا والإشادة بغزواته و صفاته المثلى والصلاة عليه تقديرا وتعظيما" [2]

وعرفها زكي مبارك، فقال:" من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية،وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلاّ عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص" [3]

---

[1]- حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، مج 2، ، ص 466

[2]- جميل حمداوي، مقال: شعر المديح النبوي في الأدب العربي، ديوان العرب، 8 يوليو 2007، ولوج الموقع:13-جويلية-2018، الساعة: 9:00 صباحا، الموقع:www.diwanalarab.com

[3]- نفسه، نقلا عن: كتاب المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، ص 17

والمعلوم أن المدائح النبوية فن قديم في شعرنا العربي،ارتبط ظهوره مع مجيء نبي الرحمة ﷺ ، ويعدّ حسان بن ثابت من أوائل الشعراء الذين نظموا قصائد، تشيد بالرسول ﷺ وتنافح عن دعوة الإسلام ضد المشركين والمنافقين، كما تثني على مآثره وفضائله، وتذكر ملاحمه وغزواته ﷺ ، ونلفي قصيدة كعب بن زهير" البردة" من مشاهير المدائح في فترة صدر الإسلام.

توالت المدائح النبوية في العصور اللاحقة،واشتهر الإمام شرف الدين البوصيري مولدا الصنهاجي نسبا في القرن السابع الهجري بهذا الفن، وسار بذكر قصائده الهمزية والبردة(الميمية) الركبان.

والقصيدة المغربية في القرن الخامس الهجري،عرفت بعض مدّاحي الرسول ﷺ ، ومن المعاني التي يلح عليها الشاعر في هذا الفن، إظهار "تقصيره في أداء واجباته الدينية والدنيوية، ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا، مناجيا الله بصدق وخوف مستعطفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة. وينتقل بعد ذلك إلى الرسول ﷺ طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة، وغالبا ما يتداخل المديح النبوي مع قصائد التصوف " [1]

ومن أشهر شعراء المديح النبوي " القاضي عياض" ومن أشهر قصائده الرائية والميمية ؛هذه الأخيرة يستهلها بقوله:

بشراك قلبي هذا سيد الأمم	*	وهذه حضرة المختار في الحرم
وهذه الروضة الغراء طاهرةً	*	وهذه القبةُ الخضراءُ كالعَلم
ومنبر المصطفى الهادي وحجرته	*	وصحبهُ والبقيعُ دائرٌ بهم

[1]– نفسه، ص نفسها

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي	*	فالعبد ضيفٌ وضيف الله لم يضمِ
يا سيدي يا رسول خذ بيدي	*	يا من لقاصده أمنٌ من النقمِ
يا أكرمَ الخلقِ من حافٍ ومنتعل	*	يا أفضلَ الناسِ في ذات وفي شيمِ
يا أشرفَ الأنبياء يا من شفاعتهُ	*	عمّتْ على الخلق في الوجدانِ والعدم
أنا فقيرٌ إلى عفوٍ و رحمة	*	وأنتَ أهلُ الرضى يا سيّد الأممِ[1]

وفي القصيدة الرائية، يتوسل الشاعر للرسول، أن يشفع فيه، ويتداركه بلطفه ورحمته، يقول:

يا رحمة الله ويا شافعا	*	والناس في حشرهم حيّرُ
إن لم تداركني بلطف فيا	*	خُسري ويا خيبة من يخسر
ذخيرتي حبك يا مصطفى	*	فإنه أفضل ما يُذخر
باسمك يا رب قرنت اسمه	*	فإنه يذكر إذ تُذكرُ
صفاته العلياء كل الورى	*	عن حصرها والقطر لا يحصر
فاشفع فإني بك مستشفع	*	وانصر فإني بك مستنصرٌ
وارحم فإني بك مسترحمٌ	*	واجبر فإنّي بك مُستجبرٌ[2]

[1]- ديوان القاضي عياض، ص 50

[2]- نفسه، ص 29

ويظهر الشاعر تشوّقه لبيت الله الحرام، وزيارة قبر رسوله ﷺ ، ويناجي نبيّه الكريم، فيقول له: يا خير أنبياء الله، ذنوبي كثيرة وأوزاري ثقيلة،فكن شفيعي لما قدمت من سيئات وذنوب، يقول:

قف بالركاب فهذا الربع والدارُ	*	لاحت علينا من الأحباب أنوارُ
بشراك بشراكَ قد لاحتْ قبابهم	*	فانزلْ فقد نلتَ ما تهوى وتختارُ
هذا النبيَّ الحجازيَّ الذي شهدتْ	*	له بتقديمِهِ رسْلٌ وأخبارُ
هذا الشّفيعُ الذي ترجى شفاعتهُ	*	للمذنبينَ إذا ما اسودّت النّارُ
بادرْ وسلّم على أنوار روضتِهِ	*	قبل الممات ولا تشغلْكَ أعذارُ
يا خيرةَ الرّسْل يا أعلى الورى شرفًا	*	قد أثقلتنيَ آثامٌ و أوزارُ
فكن شفيعي لما قدمتُ من زللٍ	*	ومن خطايا فإنّ الربَّ غفّارُ[1]

ويتوسل برسول الله، فهو ملاذه ومراده ورجاءه يوم الزحام، يقول:

إليكَ مددتُ الكفّ أستمطرُ الفضلا	*	وأستكشفُ البلوى وأستعطفُ الطّوْلا
دعوتُك مضطرًّا فعجّل إجابتي	*	بتفريجِ كربٍ طالما واصل الهولا
وأنتَ مَلاذي يا مرادي وسيّدي	*	فسامحْ مُسيئا قد جنى الجدَّ والهزلا
نداءٌ من الأعماقِ يا فالقَ النّوى	*	ويا سامع النّجوى ويا من هو الأعلى

[1]– ديوان القاضي عياض ، ص 31، 32

يتيمٌ من الطّاعات عفوك يرتجي	* قِهِ الفقر والإفلاس والفقد والذّلا
بجاهِ رسول اللهِ فارحمْ تضرّعي	* ونفّسْ همومي كلّها الفرعَ والأصلا
لجأتُ إلى بابِ الكريم لفاقتي	* فليس لنا مغنٍ سواهُ ولا مولى
وصَلِّ على قطبِ الوجودِ محمّدٍ	* صلاةً تعمّ الرّسلَ والصحب والأهلا [1]

ومن شعراء المدائح النبوية المعدودين"عبد الله بن يحي بن علي الشقراطسي" أصله من مدينة قفصة التونسية،لكنه ولد ونشأ في مدينة توزر، توفي سنة466هـ [2]

أخذ العلوم الشرعية والفقه واللغة عن علماء زمانه، وصار من فقهاء زمانه،وأصبح قاضيا ببلده توزر، " وقد طار صيته في أنحاء العالم العربي بقصيدة فريدة في 133 بيتا نظمها في مديح الرسول ﷺ " [3]

استهل قصيدته بقوله:

الحمد لله منا باعثِ الرسل	* هَدى بأحمدَ منّا أحمدَ السّبلِ
خيرِ البريَّة من بدوٍ ومن حضرٍ	* وأكرمِ الخلق من حافٍ ومنتعلِ
توراةُ موسى أتتْ عنهُ فصدَّقها	* إنجيلُ عيسى بحقٍّ غير مفتعلِ
ضاءتْ لمولِدِهِ الآفاقُ واتصلت	* بشرى الهواتفِ في الإشراق والطفلِ [4]

[1]– ديوان القاضي عياض، ص 18

[2]– ينظر: شوقي ضيف، عصر الدول والامارات(ليبيا، تونس، صقلية مرجع سابق، ص 298

[3]– نفسه، ص298

[4]– شوقي ضيف، عصر الدول والامارات(ليبيا، تونس، صقلية مرجع سابق ، ص 298

ويذكر معجزات الرسول ﷺ ، وجهاده في سبيل رفع راية الدين، ويخص بالذكر يوم فتح مكة،وقد دخلت أمم وقبائل في دين الله،ويقدم جيش المسلمين،ورسول الله على رأس هذا الجيش اللجب، يقول:

ويومَ مكّة إذ أشرفتَ في أممٍ	* يضيقُ عنها فجاجُ الوعثِ والسّهلِ
خوافقٌ ضاق ذرعُ الخافقين بها	* في قاتمٍ من عجاجِ الخيلِ
وأنتَ صلّى عليك اللهُ تقدمُهم	* في بهوِ إشراقِ نورٍ منكَ مكتملِ
والخيلُ تختالُ زهوا في أعنَّتها	* والعيسُ تنثالُ رهوًا في ثُنى الجُدُلِ
أهلَّ ثهلان بالتهليل من طرب	* وذاب يذبل تهليلا من الذُّبُلِ
المُلكُ لله هذا عزُّ من عُقدتْ	* له النبوَّةَ قبل العرشِ في الأزلِ[1]

الشعر الديني إذن تباينت موضوعاته، وتشعبت فنونه لنجد أشعارا زهدية وعظية، كما نجد قصائدا صوفية، وأخرى تنضوي تحت مسمّى المدائح النبوية، وتكاد تتفق في موضوعاتها ومعانيها، إذ يلح الشاعر على الدعوة للتقوى والإيمان بالله تعالى، والتذكير بالموت والمعاد ويوم البعث والنشور، والتزهيد في شأن الدنيا، والدعوة لاقتفاء مسلك السلف الصالح، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، فهو قدوتنا وإمامنا، وشفيعنا يوم الزحام، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والامارات(ليبيا، تونس، صقلية مرجع سابق ، ص 299

المحاضرة الثانية عشر: الشعر الصوفي في الأندلس

بعد أن تم فتح بلاد المغرب الإسلامي على يد الفاتحين الذين تعاقبوا على هذه البلاد،وثبتوا فيها أركان هذا الدين واطمئنوا إلى انتشاره بين البربر واعتناقهم إياه، تطلع موسى بن نصير والي القيروان (من سنة 86هـ – 95هـ) في عهد الوليد بن عبد الملك، لإيصال رسالة التوحيد إلى بلاد ما وراء البحر القريبة من المغرب الأقصى، فوقع اختياره على مولاه طارق بن زياد ليقوم بهذه المهمة الجليلة.

يقول عبد الواحد المراكشي: " افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة 92 من الهجرة، وكان فتحها على يد طارق، قيل ابن زياد.. وكان واليا على طنجة، مدينة من المدن المتصلة ببرّ القيروان في أقصى المغرب، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزّقاق، وبالمجاز. رتّبه موسى بن نصير أمير القيروان " [1]

ولما توغل طارق في البلاد واعترضته مصاعب وويلات كتب إلى موسى يطلب منه المدد، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن ركب البحر على رأس جيش من الفاتحين ليسهم في نصرة المسلمين، ونشر هذا الدين الحنيف إلى أصقاع من أوربا، وكان كلما فتح ناحية أو مدينة بنى فيها مسجدا لله تعالى، يقول أحد الكتّاب: " وحين نزل بجنده الجزيرة الخضراء بنى بها مسجدا، وظلّ كلما دخل بلدة كبيرة أسس بها بيتا من بيوت الله، وكان قد استقدم معه مهندسا معماريا لبناء تلك البيوت أو المساجد، واتبع في إيبيريا ما اتبعه في المغرب من تكليف بعض الفقهاء الداخلين معه تعليم أهل إيبيريا القرآن الكريم

[1]– أبو محمد عبد الواحد بن علي المراكشي، المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وتحق: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ، 2006م، ص 16

وفرائض الإسلام. ومضى بجيشه غربا يتمم فتوح طارق واستولى على شذونة وإشبيلية وقرمونة وماردة ولقنت وانتهى إلى طليطلة " [1]

وقد شهدت هذه المرحلة من تاريخ الأندلس، توغلا وتمددا للمسلمين في أجزاء من هذه البلاد بغرض نشر الإسلام، وبناء صرح المساجد لتعليم المسلمين الجدد أحكام الدين وعلومه.

ومنذ الوهلة الأولى أخذت الجوامع دورها في التعليم والتوجيه والوعظ، والتذكير بتعاليم الدين وآدابه، ولذلك انتشرت مع بداية تأسيس هذه الإمارة الإسلامية موجة الزهد، والإعراض عن الدنيا ورغائبها والإقبال على العبادة " وكان مما يزكيها في نفوس الأندلسيين الوعاظ في المساجد الذين كانوا يعظونهم دائما ويذكرونهم بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون على ربهم يوم القيامة فإما إلى الجنة والنعيم، وإما إلى النار والجحيم. وزكاها أيضا أن الحكام الأمويين كانوا يلتزمون الصلاة في المسجد الجامع وكانوا يأخذون أبناءهم ونساءهم بآداب الإسلام والقيام بفرائضه وواجباته. " [2]

وفي عصر بني أمية بالأندلس نشطت العلوم وتوسع مجال الدراسات الفقهية والشرعية، وشجع الأمراء على التحصيل العلمي ببلاد المشرق والمغرب الإسلامي، فانتشرت موجة من الزهد والوعظ في المساجد وخارجها، ومن أوائل من شاع وذاع في هذا الشأن العابد أيوب البلوطي وهو من أولياء الله مجاب الدعوة، وبمرور الزمن نمت بذور التصوف وهذا في زمن عبد الرحمن الناصر " وكان أول من بعثها ودفعها دفعا قويا في الأندلس محمد بن عبد الله بن مسرة المتوفى سنة 319 للهجرة، وكان قد حجّ وطوّف

[1]– شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات(الأندلس دار المعارف، مصر، ص 18

[2]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات– الأندلس– ص55، 56

ببلدان المغرب ومصر والشام والحجاز..وعاد إلى موطنه، واعتزل مع تلاميذه في منزل بجبل قرطبة، وأخذ يلقنهم تعاليمه، وكانت مزيجا من آراء الصوفية والمعتزلة. "[1]

ومن الشعراء الزهاد الفقيه أبو عمر أحمد بن عيسى الإلبيري (ت 429 هـ) ومن شعره الزهدي:

ملكٌ تعالى فوق غايات العُلا	*	يقضي القضاءَ على نهايات الثرى
من فوقِ فوق الفوق ينفذُ حكمهُ	*	في تحتِ تحت التحتِ تحتِ الإنتها
قربا وبعدًا وهو أبعدُ من نأى	*	من كلّ شيءٍ وهو أقربُ من دنا
جلّتْ صفاتُ جلالهِ فجلالُه	*	قدْ جلَّ عن تحديد كيفَ ومنْ وما[2]

ولأبي القاسم خلف ابن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر شعر زهديا، يصف فيه حقيقة الدنيا والتي لا تعدو كونها "سراب" وهي لا تدوم على حال، ولا تصفو أيامها، ولذلك يدعو إلى التقوى والاستعداد لدار المعاد لأنها خير وأبقى، يقول الشاعر:

جملةُ الدنيا ذهابُ	*	مثلَ ما قالوا سرابُ
والذي منها مَشيدٌ	*	فخرابٌ ويبـــــاب
وأرى الدهرَ بخيلاً	*	أبدًا فيهِ اضطرابْ
سالبٌ ما هو معطٍ	*	فالذي يُعطي عذاب

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات– الأندلس– ، ص57

[2]– ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحق: إحسان عباس، قسم1، مج1، دار الثقافة، بيروت، 1417هـ، 1997، ص 850

وليوم الحشرِ إنعا	*	مٌ سؤال وجواب
وصراطٌ مستقيمٌ	*	يومَ لا يُطوى كتاب
فاتّقِ اللهَ وجنّبْ	*	كلّ ما فيهِ حساب [1]

ومن شعراء الأندلس المعدودين في الزهد والوعظ أبو الحسن علي بن إسماعيل القرشي الأشبوني، ذكره ابن بسّام وقال فيه: " وكان يعرف بالطيطل ؛ ممن نظم الدرّ المفصّل، لا سيّما في الزهد، فإن أهل أوانه، كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه " [2]

فالطيطل من كبار شعراء الزهد في الأندلس، يحاكي في ذلك صنيع أبي العتاهية في المشرق، وتكاد موضوعاته تتقاطع مع أبي العتاهية، فهو يدعو إلى عبادة الله تعالى، والتقوى والعمل الصالح، والتفكر في حقيقة الدنيا الفانية، وإعداد الزّاد لدار المعاد، وتنبيه النفس من غفلتها وأخذها بالعبادات والاجتهاد في الطاعات، والتفكر في آيات الله تعالى وعجيب صنعه وبديع خلقه، يقول في هذا المعنى:

يا غافلا شأنُهُ الرقادُ	*	كأنّما غيرُك المرادُ
والموتُ يرعاك كلَّ حينٍ	*	فكيف لم يجفُك المهادُ
فهَيِّ زادا وزد مزادًا	*	فقد طوى عمرَكَ النّفادُ
إذ سفرُ الموتِ فيه شطٌّ	*	والقربُ منهُ هو البعادُ
ما حالُ سفرٍ بغيرِ زادٍ	*	والأرضُ قفرٌ ولا مزادُ

[1]– نفسه، قسم 1، ج1، ص889

[2]– نفسه، قسم 2، ج2، ص 797

ضمّرْ جوادًا ليومِ سبقٍ	*	لمثلهِ يُرفع الجوادُ
أين فلانٌ وكم فلانٍ	*	قد غُيّبوا في الثرى فبادوا
لا تبغِ دنيا فإنّ عنها	*	المؤمنُ المتّقي يُذادُ
فأبن لها بالتقى بروجًا	*	تأمنْ إذ رُوّعَ العبادُ
واعتبر الأرضَ كيف مُدّتْ	*	فهي لهذا الورى مهادُ
ثمّ السماءُ التّي أظلّتْ	*	قد رُفعتْ ما لها عمادُ
كما بناها يبني سِواها	*	كما بدانا كذا نُعادُ [1]

ومن شعراء الزهد المعدودين أبو وهب عبد الرحمان القرطبي ذكره صاحب الصلة، وأثنى عليه تبتّله ونسكه، وهو إذ يجاهد ويجهد في الحياة عبادة وسلوكا ومواعظا، يلقيها على الناس مذكّرا وناصحا ومحذّرا، وداعيا إلى سبل الرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة، من ذلك هذه الأبيات التي يلح فيها على معاني التقوى، والهدف من الحياة، والحذر من الغفلة ونسيان الدار الآخرة، وإعداد الزاد لها. يقول:

تنامُ وقد أعدَّ لكَ السهادُ	*	وتوقنُ بالرّحيلِ وليس زادُ
وتصبحُ مثل ما تمسي مضيعًا	*	كأنّكَ لست تدري ما المرادُ
أتطمعُ أن تفوزَ غدا هنيئًا	*	ولم يكُ منكَ في الدنيا اجتهاد
إذا فرّطتَ في تقديم زرعٍ	*	فكيف يكونُ من عدمٍ حصادُ [2]

[1]– ابن بسام، الذخيرة، ق2، ج2، ص798، 799

[2]– أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن أندلس الرّطيب، مج3، 226

ومن كبار متصوفة الأندلس في زمن المرابطين أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي المشهور بابن العريف صاحب كتاب " محاسن المجالس " ومما قال يصف شوقه لزيارة البيت الحرام والروضة الشريفة وقبر رسولنا المصطفى المختار، يقول:

سلوا عن الشوقِ من أهوى فإنهم * أدنى إلى النفس من وهمي ومن نَفَسي

فمن رسولي إلى قلبي ليسألهمْ * عن مشكلٍ من سؤالِ الصبِّ مُلتبسِ

حلَّوا فؤادي فما يندى ولو وطئوا * صخراً لجاد بماءٍ منهُ مُنبجسِ

وفي الحشا نزلوا والوهمُ يجرحُهم * فكيفَ قرّوا على أذكى من القَبَسِ

لأَنهضنَّ إلى حشري بحبّهمُ * لا باركَ اللهُ فيمن خانهمْ ونَسي[1]

واشتهر بالزهد في عهد الموحدين الفقيه أبو عمران موسى بن عمران المارتلي، إذ نجده يرغّب في الدار الآخرة، ويحث على التواضع والبعد عن الكبر والتجبّر، يقول:

لا تبكِ ثوبكَ إنْ أبليتَ جدّتهُ * وابكِ الذي أبلتِ الأيامُ من بدنك

ولا تكوننَّ مختالاً بجدّتهِ * فربّما كان هذا الثوبُ من كفنك

ولا تعَفْهُ إذا أبصرتَهُ دنسًا * فإنّما اكتسبَ الأوساخَ من درنك[2]

ومن الشعراء الزهاد أيضا بكّار بن داوود المرواني، قيل استشهد في معركة وهو يحارب الأعداء، يدعو في أبيات إلى حسن الظن بالله تعالى، وترك هوى النفس، والحذر

[1]– أحمد بن محمد المقّري التلمساني، نفح الطيب من غصن أندلس الرّطيب ، مج3، ص229

[2]– نفسه، مج3، ص 225

من الورى، ومحاسبة النفس قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال وبنون إلا من أتى الله بقلب سليم. يقول:

ثق بالذي سوّاكَ من	*	عدمٍ فإنكَ من عدمْ
وانظرْ لنفسِكَ قبلَ قرْ	*	عِ السّنِ من فرطِ النّدمْ
واحذرْ وُقيتَ من الورى	*	واصحبهُمُ أعمى أصمّ
قد كنت في تيهٍ إلى	*	أن لاحَ لي أهدى علَمْ
فاقْتدتُ نحو ضيائهِ	*	حتى خرجتُ من الظَّلمْ
لكن قناديلُ الهوى	*	في نورِ رشدي كالحِممْ [1]

ومن مشاهير متصوفة الأندلس أبو الحسن علي الشُّشتري، قيل فيه: " عروس الفقهاء، وأمير المتجردين، وبركة لابسي الخرقة، وهو من قرية ششتُر من عمل وادي آش، وزقاق الششتري معلوم بها، وكان مجوّدا للقرآن، قائما عليه، عارفا بمعانيه، من أهل العلم والعمل، جال الآفاق، ولقي المشايخ، وحجّ حجّات، وآثر التجرّد والعبادات.

وذكره القاضي أبو العباس الغبريني في " عنوان الدراية " فقال: الفقيه الصوفي، من الطلبة المحصّلين، والفقراء المنقطعين، له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصوفية، وتقدّم في النظم والنثر على طريقة التحقيق، وأشعاره وموشحاته وأزجاله الغاية في الانطباع " [2]

[1]- نفح الطيب، مج3، ص 337

[2]- نفسه، مج2، ص 185

زار الشاعر حواضر إسلامية كثيرة متلقيا علوم الشرع والدين عن كبار علماء الأندلس والمغرب والمشرق، سالكا سبل المتصوفة والعارفين، متأثرا أيما تأثر بشيخه ابن سبعين، له ديوان شعر، ومما قاله في المعاني الصوفية:

لقد تِهتُ عُجبًا بالتجرّد والفقرِ	*	فلم أندرجْ تحت الزمانِ ولا الدهرِ
وجاءتْ لقلبي نفحةٌ قُدُسيةٌ	*	فغبتُ بها عن عالمِ الخلقِ والأمرِ
طويتُ بساطَ الكونِ والطيَّ نشرهُ	*	وما القصدُ إلاّ الترْكُ للطيِّ والنشرِ
وغمّضتُ عينَ القلبِ غيرَ مطلّق	*	فالفيتني ذاكَ المُلقّبِ بالغَيرِ
وصلتُ لمن لم تنفصلْ عنهُ لحظةً	*	ونزّهتُ من أعني عن الوصل والهجرِ
وذلك مثلُ الصوتِ أيقظَ نائمًا	*	فأبصرَ أمرًا جلَّ عن ضابط الحصرِ
فقلتُ له الأسماءُ تبغي بيانه	*	فكانت له الألفاظُ سترًا على سترِ[1]

ويذكر صاحب المعجب أن الزهاد كثرت أعدادهم في عهد السلطان يعقوب الموحدي، وأنه كان يقدّمهم على جنده وعسكره في موقعة الأرك سنة 591 هـ وغيرها من الوقائع ويقول: هؤلاء هم الجند لا عسكره. يقول المراكشي: " ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة 592 وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذلّ الله فيها الأذفنش وجموعه وأعزّ الإسلام وأنصاره، كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين

[1]– نفح الطيب، مج2، ص 186

والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء؛ ويشير إلى العسكر " [1]

أما لسان الدين ابن الخطيب، فهو يتضرع لله تعالى ويبتهل إليه، بكل عزيز وحبيب إليه، وبكل مكان مقدس لديه، يقول:

إلهي بالبيتِ المقدّسِ والمسعى	*	وجمعٍ إذا ما الخلقُ قد نزلوا جمعا
وبالموقفِ المشهودِ يا ربِّ في مِنًى	*	إذا ما أسالَ النّاسُ من خوفِك الدمعا
وبالمصطفى والصّحْبِ عجّلْ إقالتي	*	وأنجحْ دعائي فيكَ يا خير من يُدعى
صدعتُ وأنتَ المُستغاثُ جنابُهُ	*	أقلْ عثرتي يا مأملي واجبرِ الصّدعا[2]

وفي أبياته هذه يتجه إلى ربه متوسلا بمقدساته " ببيت المقدس والمسعى بين الصفا والمروة في الحج وبجمع أو المزدلفة مجتمع الحجاج، وبموقفهم في منى متبتلين إلى ربّهم، وبالرسول ﷺ وصحبه أن يتجاوز عن سيئاته وأن يقبل منه دعاءه، فقد جهر بذنوبه ولاذ بجنابه، وإنه ليستغيث به ضارعا إليه أن يقيله من عثرته ويجبر الصدع أو الشقّ البيّن في أعماله. " [3]

المدائح النبوية: عرف هذا اللون من الشعر بكثرة بين الشعراء الأندلسيين، وهم يصدرون في شعرهم عن حب خالص للرسول الكريم وأهل بيته الأطهار وصحبه المقربين الأخيار، كما كان للعامل التاريخي وظروف الأندلس الخاصة وما عايشته من ويلات وفتن ومؤامرات النصارى الصليبيين للقضاء عليها " وقد أخذت هذه المدائح تتكاثر في

[1]– عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 208

[2]– أحمد بن محمد المقّري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358هـ، 1939م، ص271

[3]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات– الأندلس– ، ص 353.

الأندلس منذ عصر أمراء الطوائف الذي أصبحت فيه الأندلس دولا وإمارات كثيرة، مما جعل نصارى الشمال ينشطون لاسترداد الأندلس، واستردوا طليطلة وبعض حصون وقلاع، وفرضوا على أمراء الطوائف المتنابذين إتاوات كانوا يؤدونها لهم خانعين. وهو ما جعل غير شاعر أندلسي يفزع إلى مديح الرسول الكريم ﷺ آملا أن تستمد الأندلس منه الأيد والقوة في نضال أعدائها وأعداء الدين الحنيف." [1]

فهذا ابن السيد البطليوسي أجاد في هذا الفن وذاع، ذكره أبو نصر الفتح بن عبيد الله المعروف بابن خاقان، قال فيه: " وقال في الزهد، وهو غرض قد أكثر القول فيه، والضراعة لباريه، وراش أنواعه وبرى، وحلب فنونه ومرى، وذلك مما يدل على ورعه، وصفاء منهله في التقى ومشرعه. " [2]

عرف بكثرة مدائحه للرسول المصطفى عليه السلام، ومما قاله في هذا الباب:

وزورةُ أحمدِ المختارِ قدِما	*	منايَ وبُغيتي لو شاء ربي
فإنْ أحرم زيارَتَهُ بجسمي	*	فلم أحرم زيارتَه بقلبي
فدونكَ يا رسول الله منّي	*	تحيّة مؤمنٍ وهدى مُحبِّ
سأجعلُ عُروتي الوُثقى يقيني	*	لصحة ما أتيت به وحبّي
عسى ودٌّ ثوى لكَ في فؤادي	*	على بعدٍ سيوجبُ منك قربي
شهدتُ بأنّ دينكَ خيرُ دينٍ	*	بلا شكٍّ وصحبُك خيرُ صحبِ [3]

أما الفقيه والمتصوف، والعارف بالله (العريف) صاحب كتاب " مطالع الأنوار ومنابع الأسرار" ضمّنه مدائح نبوية كثيرة، تغنّى فيها بسيرة المصطفى وحياته من الطفولة

[1]– شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات– الأندلس– ، ص 370.

[2]– المقّري التلمساني، أزهار الرياض، ج3، ص116

[3]–نفسه، ج3، ص 148، 149

إلى الوفاة، ليعرّج خلالها على معجزاته، وبطولاته وأخلاقه ومناقبه، مبديا الشوق والحنين إلى بلاد الحرم ومرابع طفولته ﷺ ، يقول في قصيدة تضمنت تكرار عبارة (صلى عليه الله):

صلى الإلهُ على النبيّ الهادي	*	ما لاذتِ الأرواحُ بالأجسادِ
صلّى عليه اللهُ ما اسودّ الدّجى	*	فكسا مُحيّا الأفْقِ بُردَ حدادِ
صلّى عليه اللهُ ما انبلجَ السّنا	*	فابيضَّ وجهُ الأرضِ بعد سوادِ
صلّى عليه ما همع الحيا	*	فسقى البلاد برائحٍ أو غادي
صلّى على المختار أحمدَ ربّه	*	ما استمسكتْ نارٌ بطيِّ زنادِ
صلّى على خيرِ الأنامِ محمدٍ	*	مَن خصَّهُ بالنور والإرشادِ
صلّى الإلهُ على رسولٍ حاشرٍ	*	حُشر الأنامُ لديهِ في الميعادِ
صلّى الإلهُ على رسولٍ خاتمٍ	*	ختمَ النبوّةَ بالكتابِ الهادي
صلّى الإلهُ على رسولٍ فاتحٍ	*	فتحَ الظلامُ بنورِهِ الوقّادِ
صلّى الإلهُ على نبيٍّ راحمٍ	*	بالملّةِ الغرّاءِ بعد فسادِ
صلّى عليه اللهُ فهو نبيُّهُ	*	ناداهُ بالإرشادِ خيرُ منادِ
صلّى عليه اللهُ فهو رسولهُ	*	أعطاهُ رايةَ عزمةٍ ورشادِ [1]

[1]– نفح الطيب، ج7، ص 498،499

وهي قصيدة طويلة بديعة يفرغ فيها كنانته في مدح خير العباد، والتغنّي بمناقبه وهديه، ويستحثّ أمته في اتباع سنته وسيرته والصلاة عليه في كل مكان وحين.

ولأبي عبد الله ابن الجنان الأندلسي، شعر كثير في مدح رسول الله ، وفيه يظهر حبّه لرسول الله وإعجابه بأخلاقه ومآثره، وترغيبا للمؤمنين في التأسي بأقواله وأفعاله، حتى يبلغ المسلم من نفسه مقاما عليا. يقول:

يامن تقدّسَ عن أن	*	يحيطَ وصفٌ بذاته
ومن تعالى جلالاً	*	عن مشْبهٍ في صفاته
صلّى على من تبدّى	*	نورُ الهدى من سِماته
محمدٌ خيرُ هادٍ	*	بحِلمِهِ وأناتِـــــه
محمدٌ خيرُ داعٍ	*	بالصّدقِ من كلماته
محمدٌ خيرُ مُبدٍ	*	لنا سنا مُعجزاتـــه
أكرم به من نبيٍّ	*	همتْ سما مكرماتهْ
أعزِزْ به من رسولٍ	*	سمتْ علا درجاتهْ
وخصّهُ اللهُ منهُ	*	بالفضلِ من تكرماتهْ
لمّا حباهُ بأوفى	*	صِلاتهْ من صَلاتهْ [1]

ويبلغ الشاعر سلامه الحار لمولى الشفاعة الهادي المختار، من حباه الله علما وذكاء، من اجتباه الله على جميع الأنبياء، شمس النبوة، بحر العطاء وفيض الرحمة ونبراس الهداية عليه صلوات ربي وسلامه عليه، يقول في هذا المعنى:

[1]– نفسه، ج 7، ص 501، 502.

يا ربّ بلّغ سلامي	*	لأحمدٍ ذي الشفاعهْ
لخاتم الرّسلِ أعني	*	إمامُ تلك الجماعهْ
لمرشدٍ بهُداهُ	*	قد فازَ عبدٌ أطاعهْ
شمسُ النبوّةِ مُعطٍ	*	شمسَ السماءِ شُعاعهْ
ومن حبا بذكاء	*	خلالَهُ وطباعهْ
ومدَّ في كلّ فضلٍ	*	لصفوةِ الرّسلِ باعهْ
فزدهُ يا ربّ فخرًا	*	وزدْ محبّيهِ طاعهْ [1]

ومن مشاهير المادحين لحضرة النبي المصطفى أبو زيد الفازازي، فقد جعل غاية وجوده، ومنتهى أمله في الحياة مدح رسول الله واستحضار سيرته، وإحياء مناقبه وهديه، والتغنّي باسمه ورسمه بين جميع العباد والمخلوقات، يقول:

كملتْ بنعت محمدٍ خيرِ الورى	*	غررُ القصائد كلّها وحجولها
فاضتْ على الثقلين منه أشعّةٌ	*	طلعتْ وما عقبَ الطلوعَ أفولها
كم آيةٍ بالصدقِ كان ظهورها	*	كم آية بالسبقِ كان نزولها
وكفاكَ هذا الوحيُ فهو شهادةٌ	*	لمحمّدٍ لزمَ العبادَ قبولها
جمع الإلهُ المكرماتِ لأمّةٍ	*	هذا النبيّ الهاشمي رسولها [2]

ويدعو المسلمين إلى التأدب أمام حضرة النبي إذا ذكر اسمه، والصلاة عليه في كل حال وحين، يقول:

[1]- نفح الطيب ، ج7، ص502.

[2]- نفح الطيب، ج7، ص507، 508

تأدّبْ إذا ذُكر المصطفى * بصمتِ اللسانِ وغضِّ البصرْ

فإنّ التأدّبَ عند السّماعِ * يفهّم في النطقِ أو في النظرْ

وصلِّ عليهِ مدى ذكره * فذلكَ أفضلُ ما يدّخرْ [1]

وممن ذاع وبرع في هذا الفن أبو عبد الله ابن جابر الضرير، ذكره المقري وقال: إن له أمداح نبوية في غاية من الإجادة [2].

ومن شعره اخترنا:

يا أهل طيبةَ في مغناكمُ قمر * يهدي إلى كل محمودٍ من الطُّرقِ

كالغيثِ في كرم والليثِ في حرمٍ * والبدر في أفقِ والزهرُ في خلقِ [3]

إن الشعر الصوفي الأندلسي مادة غنية ثرية بالموضوعات، والمضامين والمعاني، تمتح من معين القصيدة المشرقية بالدرجة الأولى ثمّ تنفرد عنها في طريقة الصياغة وتنوع القضايا وغنى التجربة السلوكية للشاعر؛ هذا الأخير كثيرا ما نجده يحلق في عوالم كشفية وعرفانية فريدة.

كما يغلب على هذا الفن الروح والطابع المغربي والأندلسي، لذلك كثيرا ما ينتمي شعراؤه للتصوف السني. وينأون بأنفسهم عن التصوف الفلسفي

[1]- نفح الطيب، ج7، ج7، 511، 512

[2]- ينظر: نفسه، ج2، ص 664

[3]- نفح الطيب، ج2، ص668

نخلص بعد هذه الدراسة والجولة العلمية إل جملة من النتائج والخلاصات، من أهمها:

ـ الزهد هو حركة دينية، اختار سلوكها طائفة من العبّاد والوعاظ.

ـ الزهد في العصر الأموي مسلك وجودي يسلكه العبّاد تأسيا بالرسول ﷺ.

ـ الزهد في العصر العباسي جاء كردة فعل على موجة المجون والخلاعة التي أشاعها الزنادقة والشعوبيين.

ـ من مشاهير شعراء الزهد أبو العتاهية، وشعره يتسم بسهولة اللغة ووضوح الفكرة.

ـ أصول التصوف إسلامية، يقوم على عقيدة التوحيد والتمسك بآداب الدين الصحيحة.

ـ الحب الإلهي من أعظم ملامح التصوف، وغاية المريد حب المحبوب والفناء فيه.

ـ الزهد الحقيقي لا يعني بأي حال من الأحوال اعتزال الناس، والعيش في الكهوف والفلوات، ولبس الصوف وترك العمل وطلب الاجتهاد، والسعي نحو الرزق الطيب، ومخالطة الناس بخلق حسن والتأثير فيهم نحو الأفضل.

ـ قصيدة الزهد أفكارها واضحة، تستقي مادتها من القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة، وسيرة الرسول ﷺ والسلف الصالح، لغتها مشرقة، ألفاظها سهلة، بعيدة عن التكلف والتعقيد اللفظي.

ـ تطورت القصيدة الدينية في العصر العباسي نظرا للتطور الحضاري والتنوع الثقافي وكثرة المدارس الفكرية والفلسفية كالاعتزال والجبرية ؛ مما أدى إلى نشوء الشعر الصوفي.

ـ التصوف قسمان: تصوف سنّي، يعمل على الملاءمة بين الشريعة والحقيقة.

وتصوف فلسفي يهتم بأهم القضايا المتصلة بالفلسفة، ويتناقض تناقضا تاما مع الشريعة أو المنطق.

ــ التصوف ينبني على خمسة قواعد وهي: صفاء النفس ومحاربتها، قصد وجه الله تعالى، التمسك بالفقر، توطين القلب على الرحمة والمحبة،التجمل بمكارم الأخلاق

ــ الحب الإلهي أساس التصوف وروحه، فالمحبة عاطفة فياضة تغمر القلب، وتجعل الجوارح لا تشعر إلاّ بجوار المحبوب.

ــ وحدة الوجود من مقولات المتصوفة الذائعة ؛ ويقصد بها أنّ الله والعالم شيء واحد

ويعد الحلاج من أوائل القائلين بهذه الفكرة، ومن أشد المنافحين عنها.

ــ " الحقيقة المحمدية " من أقدم المقولات الفلسفية، فالنور المحمدي أزلي وأصل الوجود، وأول شيء خلقه الله تعالى، وكل موجود مستمد منه.

ــ تقديس الأنبياء مناف ومجانف لجوهر الدين؛ الذي يقرر حقيقة بشرية الأنبياء، ومنهم نبينا محمد عليه السلام.

ــ المديح النبوي يتميز بجمال الأسلوب وعمق المعنى وقوة الشعور وصدق العاطفة والنهل من منابع القرآن الكريم والشريعة الغراء وسيرة النبي العطرة.

ــ استعمل المتصوفة اللغة استعمالا خاصا، واتخذوا من الرمز مطية للتعبير عن أحوالهم النفسية، وتجاربهم الروحية الذوقية، التي لا يستطيعون توصيفها بصورة مباشرة.

ــ يلجأ الصوفية إلى الرمز خوفا من بطش السلاطين، والفقهاء وجمهور العامة، ووصمهم بالكفر.

ــ قصيدة الغزل رافد غني يستقي منها المتصوف جمال الأسلوب، وقوة الأداء في التعبير عن عواطف الوجد، ومشاعر الحب والفناء.

ـ الخمر رمز لحالات الفناء، والصحو والسكر، كما استفادوا من معجم شعراء الخمرة، وعلى رأسهم أبو نواس.

ـ للمتصوفة مصطلحات خاصة، تصور أحوالهم وتصف مقاماتهم، يستعملونها فيما بينهم، وللستر على من باينهم في طريقتهم.

ـ للمتصوفة مصادر تشرح وتفسر اصطلاحاتهم، من أهمها اصطلاحات الصوفية للشيخ الأكبر بن عربي.

ـ شغل بن عربي فكر الأجيال بآرائه وفكره حول العقيدة والعبادات وكثرة مؤلفاته، ومن أشهرها كتابه الشهير " الفتوحات المكية "

ـ شعر بن عربي غني بالتجربة المعرفية والذوقية، ومترع بلغة إيحائية بديعة.

ـ شعر بن الفارض حوى خلاصة تجاربه الوجودية، وصور أحواله ومقاماته.

ـ يصدر بن الفارض في تصوفه عن إيمان صادق وعقيدة راسخة في محبة الله تعالى.

ـ تصوف الأمير عبد القادر الجزائري هو امتداد لفكر بن عربي الصوفي.

ـ شعر الأمير عبد القادر الصوفي يعبر عن تجاربه وأحواله ومقاماته.

ـ انتشر الزهد في بلاد المغرب الإسلامي، لكثرة الزهاد والنسّاك، ولكثرة الرباطات والجبال وما فيها من كهوف تتيح للعبّاد الإنفراد للعبادة.

ـ بكر بن حماد من أوائل الزهاد في بلاد المغرب الإسلامي، وشعره الوعظي يتسم بجمال اللغة وقوة الأداء، وصدق العاطفة.

ـ من كبار شعراء المدائح النبوية والمواعظ الدينية في القرن الخامس القاضي عياض.

ـ انتشر الزهد والتصوف بكثرة بين شعراء الأندلس، وذلك بالنظر للظروف التاريخية والسياسية والفتن التي عايشتها هذه البلاد، وبسبب هجمات النصارى الإسبان عليها .

ـ اشتهر بالشعر الصوفي في الأندلس أبو الحسن الششتري، كما عرف بن الجنان الأندلسي بمدائحه النبوية ؛ التي يتغنى فيها بأخلاق النبي ومناقبه العظيمة، ويبدي حبه لحضرة النبي المصطفى ﷺ وإعجابه بفضائله ومآثره.

قائمة المصادر والمراجع:

المصحف الشريف: برواية حفص عن عاصم، دار المحبة، دمشق، ط1،1427 هـ

1) ــ المصـــــادر:

1-الأحاديث القدسية (مجموعة من الكتب الستة) دار الكتاب الحديث، الجزائر، 1431هـ، 2010 م

2-الإمام البخاري، صحيح البخاري، ضبط النص: محمود محمود نصّار، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 1425 هـ، 2004 م

3-الإمام أحمد بن حنبل (أبو عبد الله) الشيباني، كتاب الزهد، تحق: محمد السعيد بسيوني زغلول، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ، 2002 م

4-الحصري (أبو الحسن) القيرواني، حياته وأعماله (ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح) تحق: محمد المرزوقي، الجيلاني بن الحاج يحي، مكتبة المنار، تونس، 1963

5-ابن بسّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1417 هـ، 1997 م

6-الدرّ الوقّاد من شعر بكر بن حماد، جمع وشرح: محمد رمضان بن شاوش، ط1، المطبعة العلوية، مستغانم، 1385هـ، 1966 م

7-الإمام زين الدين الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحق: إبراهيم بركة، أحمد راتب عرموش، الشركة الجزائرية.

8-أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحق: عادل نويهض، ط2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979

9-أبو العتاهية، شرح الديوان، ط3، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت، 1423 هـ، 2002 م

- الشيخ ابن عربي (محيي الدين):

10 ــ التجليات الإلهية، ضبط وتصحيح: محمد عبد الكريم النمري، ط1، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، 1423 هـ، 2002 م

11 ــ ديوان ترجمان الأشواق، ط3، دار صادر، بيروت، 1424 هـ، 2003

12 ــ فصوص الحكم، تعليق: أبو العلا عفيفي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ، 2002 م

13-ابن الفارض، الديوان، شرح: هيثم هلال، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1429هـ،

2008 م

- الأمير عبد القادر الجزائري:

14 ــ الديوان، تحق: زكريا صيام، ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الجزائرية للكتاب.

15 ــ مذكرات الأمير (سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849) تحق: محمد الصغير بناني، محمد سماتي، محمد ألجون، ط4، شركة دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، 2004 م.

16 ــ المواقف الروحية والفيوضات السبوحية، تحق: عاصم إبراهيم الشاذلي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، بيروت.

17-القاضي عياض، الديوان، سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (19)

18-الإمام القشيري النيسابوري، الرسالة القشيرية، ط3، دار صادر، بيروت، 2011م

19-الشيخ محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط1، الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، 1417 هـ، 1997 م

- المقّري (أحمد بن محمد) التلمساني:

20 ــ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1358 هـ، 1939م

21 ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1424 هـ، 2003 م.

2) ـ المراجـــــع:

1-أحمد أمين، ظهر الإسلام، ج4، ط1، دار الأصالة، الجزائر.

2-أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 1428 هـ، 2008 م

3-أبو البركات عبد العزيز الميمني الراجكوتي، النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السفلية ومكتبتها، القاهرة.

4-حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة وإكمال: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بيت الحكمة، تونس، 1990

5-عبد الحكيم حسان، التصوف في الشعر العربي الإسلامي، دار العراب، دار نور، دمشق، 2010

6-عبد الرحمان رأفت الباشا، صور من حياة التابعين، ط15، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، 1418 هـ، 1997

7-ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعر القيروان، تحق: محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1406 هـ، 1986

8-ساعد خميسي، ابن العربي المسافر العائد، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون،، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1431 هـ، 2010

9-سفيان زدادقة، الحقيقة والسراب قراءة في البعد الصوفي عند أدونيس، ط1، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، ناشرون، الجزائر، بيروت .

- شوقي ضيف:

10 ــ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الأندلس) دار المعارف، مصر.

11 ــ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان) دار المعارف، القاهرة

12 ــ تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (ليبيا، تونس، صقلية) دار المعارف، القاهرة

13 ــ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط6، دار المعارف، القاهرة

14 ــ التطور والتجديد في الشعر الأموي، ط8، دار المعارف

15 ــ فصول في الشعر ونقده، دار المعارف، القاهرة

- عاطف جودة نصر:

16 ــ الرمز الشعري عند الصوفية، دار الأندلس، دار الكندي، بيروت

17 ــ شعر عمر بن الفارض – دراسة في الفن الشعري الصوفي – ط1، دار الأندلس، بيروت، 1402 هـ، 1982 م

18–علي الخطيب، إتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة، 1404 هـ

19–العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب والأندلس) تحق: آذرتاش آذرنوش، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحي، محمد المرزوقي، ج2، ط2، الدار التونسية للنشر، 1986

20–عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، الأدب في المغرب والأندلس – عصر المرابطين والموحدين – ج5، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، 1985

21–فايز الداية، جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1424 هـ، 2003

22–مجنون ليلى، الديوان، شرح: يوسف فرحات، دار الكتاب العربي، بيروت، 1431هـ، 2010

23–محمد زايد، أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع الفني، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011

24– محمد الطاهر علاوي، العالم الرباني أبو مدين شعيب التلمساني، شركة دار الأمة، برج الكيفان، الجزائر، 2011

25–محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، ط2، دار المعارف، مصر، 1978

26– محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر والجزائر، ج1، المطبعة التجارية، غرزوزي وجاويش، الإسكندرية، 1903

27– محمد مرتاض، التجربة الصوفية عند شعراء المغرب العربي في الخمسية الهجرية الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر.

28– محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، القاهرة

29– مصطفى الشكعة، الشعر والشعراء في العصر العباسي، ط5، دار العلم للملايين، 1980

30- نظلة الجبوري، المصطلح الصوفي في الإسلام، ط3، دار نينوى، دمشق، 1434 هـ، 2013

31- أبو نواس، الديوان، تحق: أحمد عبد المجيد الغزالي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1423 هـ، 2003 م

32- نور سلمان، معالم الرمزية في الشعر الصوفي، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1954

33- نور الهدى الكتاني، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، ط1 ن دار الكتب العلمية، بيروت، 1429 هـ، 2008

34- هيفرو محمد علي ديركي، جمالية الرمز الصوفي، ط1، دار التكوين، دمشق، 2009 م

35- ابن عبد الواحد (أبو محمد) بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح وتحق: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ، 2006م

3) ــ المعاجـــــم:

1- أحمد حسن الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر، اسطنبول، تركيا

2- الإمام الرازي، مختار الصحاح، تحق: عبد الفتاح البركاوي، دار المنار

3- الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، تحق: محمد عبد الرحمان المرعشلي، ط2، دار النفائس، بيروت، 1428 هـ، 2007

4- محمد بن رمضان شاوش، الغوثي بن حمدان، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع، حسين داي، الجزائر، 2011

5- لويس معلوف، المنجد في اللغة، ط19، المطبعة الكاثوليكية، بيروت

4 ــ المجلات والدوريات والندوات:

1- جميل حمداوي، مقال: شعر المديح النبوي في الأدب العربي، ديوان العرب، 8 يوليو 2007، ولوج الموقع: 13 جويلية 2018، الساعة: 9:00 صباحا، الموقع: www.diwanalarab.com.

2- رزقي بن عمر، مدخل إلى نظرية وحدة الوجود، مفاهيم عن تجربة الأمير عبد القادر الصوفية، تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر، ط1، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات السياسية والفكر، دار القدس العربي، الجزائر، 2010.

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
مقدمة	أ-- ج
المحاضرة الأولى : شعر الزهد والتصوف	05
المحاضرة الثانية: نشأة الأدب الصوفي	12
المحاضرة الثالثة: أقسام التصوف وقواعده	18
المحاضرة الرابعة: الحبّ الإلهي	24
المحاضرة الخامسة: الحلول والإتحاد	29
المحاضرة السادسة: الحقيقة المحمدية	33
المحاضرة السابعة: الرمز الصوفي: مفهومه وأنواعه	39
المحاضرة الثامنة: المصطلح الصوفي	45
المحاضرة التاسعة: اللغة الصوفية	50
المحاضرة العاشرة: أعلام التصوف	53
المحاضرة الحادية عشر: الشعر الصوفي في المغرب الإسلامي	78
المحاضرة الثانية عشر: الشعر الصوفي في الأندلس	100
الخاتمة	114
قائمة المصادر و المراجع	118